

علم نفسك

٦

# الحضارة الأوربية

في القرون الوسطى وعصر النهضة

تأليف فرويدناند شيل

أستاذ التاريخ الحديث في جامعة شيكاغو

دار العلم للملايين

بيروت

١٩٥٢

# عَاطِمُ نَفْسِكُ

سُلْسِلَةُ كُتُبِ مَبْسُطَةِ لِنَشْرِ الثَّقَافَةِ الْعَامَّةِ  
اخْتَارَ مَوْضُوعَاتِهَا وَنَقَلَهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ  
مُنِيرُ الْبَعْلَبَكِيِّ

الطبعة الاولى

بيروت ، حزيران ١٩٥٢

## ١ . المذهب الجديد في كتابة التاريخ

من واجب المؤرخ المعاصر ، قبل كل شيء ، ان يشرح لقرائه مفهومه من التاريخ ، لأن لفظة التاريخ انتهت الى ان تصبح مرنة ذات حدود لا متناهية . وليس من المبالغة في شيء ان نقول إن هناك اليوم من « تعريفات » التاريخ بقدر ما عندنا من المؤرخين ، وإن كل مؤرخ ينزع الى ان يكتب التاريخ على طريقته الخاصة .

### المذهب التقليدي في التاريخ يعني السياسة

وهذا الاتساع في أفق التاريخ إنما يرجع الى وقت قريب نسبياً . ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان المؤرخ الانكليزي ادورد فريمان Edward Freeman ما يزال قادراً على ان يعلن ، في اطمئنانٍ جازم ، ان « التاريخ هو السياسة الماضية » . ولم يكتب فريمان بالكلام الموضوعي الهادئ ، فحمل على خصومه جميعاً وناضل في حرارة دفاعاً عن التعريف الذي اصطنع ، على اعتبار أنه وحده الذي يتفق والتقليد الشريف لصناعة التاريخ ، وعلى

اعتبار ان التخلي عنه ينتهي بها الى الاضطراب والفوضى  
والحق ان الوقائع كانت تؤيد ما قال به الى حد لا يقبل  
الخلافاً ، بحيث ان احداً لم يقم في وهمه ان يُنكر ان  
أسلاف فريمان الأوروبيين الذين يرقون الى عصر النهضة قد  
ارتضوا التاريخ بحثاً يُعنى ، في جوهره ، بالسياسة . ليس  
هذا فحسب ، بل ان المؤرخين الاقدمين ، من هيروdotus  
الى طاسيتوس Tacitus ، وهم الذين نظر اليهم الكتاب المُحدَثون  
نظرهم الى انصاف آلهة واتخذوا منهم أئمةً يقلدونهم ويقتفون  
آثارهم ، سلكوا السبيل نفسه والحطة عينها . لقد كان من  
المستلم به ان التقليد القديم يقضي بتفسير التاريخ تفسيراً  
سياسياً محضاً ، وان كل تنكّب هذه الطريق يُعتبر خروجاً  
على سلطان آلهة التاريخ وإزراءً بالتقاليد والمقدسات .

### الحركة العصرية تمحطم هو اجز المذهب التقليدي

ومع ذلك فقد عجز فريمان وعجزت جمهرة المؤرخين  
الراقين الى عهد هيروdotus نفسه ، ابي التاريخ ، عن ان  
يقفوا الحركة التي قدّر لها ان تمحطم الحواجز العتيقة .  
والواقع ان هذه الحركة ظلت تعمل في هدوء وعلى استحياء ،  
شأن جميع القوى الثورية ، بضعة اجيالٍ قبل ان ينتبه  
الناس الى وجودها . وليس من ريب في انها انبثقت ، في  
المحلّ الاول ، عن الاثرات العلمية التي خلقت علمي الطبيعة  
والفلك الحديثين ، وحملت على ظهور انفسات النقدية الحديثة

والمذهب الطبيعي الجديد في الفن والادب . فمذ القرن الثامن عشر بخاصة اخذت الروان النشاط الانساني المختلفة تحظى ، الى جانب المؤسسات السياسية ، بشيء من اهتمام الباحثين وعنايتهم . حتى اذا انتصف القرن التاسع عشر اصبحت هذه المادة الجديدة ، التي تمثل جهاد الانسانية الطويل المتعدد الجنبات في سبيل التمكين لنفسها في هذه الارض ، غزيرةً الى درجة يتعذر على المؤرخين تجاهلها . صحيح ان مفهوم التاريخ التقليدي كان من القوة بحيث اصر جماعة من المحافظين على ان المسائل السياسية هي وحدها التي تتصل بعمل المؤرخ؛ وان على علماء الاقتصاد والاجتماع وغيرهم من اهل الاختصاص الجُدد ان يعالجوا، من دون المؤرخين اصحاب الصناعة الشريفة ، هذه المعارف المستحدثة ويعرضوا لها . وليكن حماة المذهب القديم اخذوا في التناقص عقداً بعد عقد ، الى ان قام فريمان بنضاله الماثور الذي سبقت اليه الاشارة . ومع ان هذا النضال ارتدى طابع الهجوم فقد اعتبر - على ضوء التطور الذي تمّ في القرن التاسع عشر - السهم الاخير في حرب خاضها اصحابها في ظل هذا الشعار العاطفي الاخرق الذي يقول : « ان الحامية العتيقة قد تموت ولكنها لا تلقي السلاح ! »

القرن العشرون بشهره فجر المذهب الجديد في التاريخ ومع فجر القرن العشرين كان المذهب الجديد في التاريخ

قد انتصر انتصاراً تاماً . فكانت النتيجة المباشرة ، من غير شك ، ذلك الاضطراب الذي تنبأ به في كثير من الثقة ، فريمان وأضرابه . وفي غمرة من الأقرار الصادق ، كثيراً أو قليلاً ، بأن صفحات التاريخ ليست وقفاً على الاحداث السياسية اتخذ كل مؤرخ لنفسه وجهةً املاها عليه موقفه الخاص من عالم اليوم . فبينما ظلت الدولة موضع عناية التاريخ الرئيسية نزع بعض المؤرخين الى الأفادة من مادة البحث الجغرافي ، وآثر بعضهم المادة الاقتصادية ، في حين أصاح آخرون الى الاصوات المنبعثة من دنيا الأدب والفنون . وعلى الرغم من أن كل وجه من وجوه النشاط الانساني والمؤثرات فيه قد أصبح - وسط هذه الثورة المفاجئة على القيود القديمة - موضوعاً من موضوعات البحث التاريخي من الناحية النظرية ، فالواقع أن كل مؤرخ بسط سلطانه على اكبر عددٍ من الميادين استطاع الوصول اليها ، ليخرج للناس ، تحت اسم التاريخ ، نتاجاً شخصياً الى حدٍ بعيد . ولا نستطيع ان نتصور علاجاً لهذه الفوضى المؤسفة غير الاتفاق على عناصر « التاريخ الجديد » الحقيقية ، وعلى قيمة كل عنصر بالنسبة الى العناصر الأخرى ، ثم على طريقة تعليلها وأصوله . ولكن علينا قبل مجرد الشروع في مثل هذا الاتفاق أن ننسق مختلف النتائج التي انتهى اليها علماء الجغرافية والاقتصاد والاجتماع والأثنولوجيا وأن نجعلها في متناول الطالبين . حتى اذا تم

لنا ذلك وأتبعناه بألقاء فرض Hypothesis جديد نهديه  
ابداً من طريق المراجعة على ضوء الحقائق ، خلصنا الى وضع  
الصيغة التي تمكن « التاريخ الجديد » من ان يحقق شروط  
العمل التألفي أو التركيبي synthesis المطابق لمقتضيات  
الفكر الحديث .

« التاريخ التركيبي » غير الناضج ومحاوره هـ . ج . ويلز

ومثل هذا البرنامج الواسع العريض يقتضي تعاون  
رجال عديدين ؛ وقد لا ينجح هذا التعاون في رسم صورة  
جديدة ، و مرضية ، للعالم إلا بعد عملٍ دائبٍ تقوم به  
اجيالٌ عديدة . أما اذا أبى مؤرخ قليل الاضطراب ان ينتظر  
اكثر مما فعل ، فاسرع الى اصدار « التاريخ التركيبي » الذي  
يقتضيه الاستشراف outlook التاريخي الجديد فإن نواحي  
ضعفه خليقة بأن تُقيم الدليل على ان محاولته فجأة سابقة  
لأوانها ، وإن لم يخفق في ان يكون رائداً نافعاً في هذا  
المضمار ، شريطة ان يخضع عمله لنقد ذاتي امين . وعلى هذا  
الضوء نستطيع ان ننظر الى بعض المحاولات التركيبية الحديثة  
وبخاصة محاولة هـ . ج . ويلز في كتابه « مختصر التاريخ »  
Outline of History فعلى الرغم من كثرة المآخذ على هذا  
الكتاب ، سواء من حيث إهماله لاشياء بعينها أو غايته  
باشياء بعينها ، فقد أدّى خدمةً جليّةً بتوكيزه التفات  
المؤرخين والجمهور جميعاً نحو محاسن النظر الى العالم كوحدة

على ما تقتضيه مقاييس العلم واتساع افق المعرفة الحديثة .  
ونحن إذا أغفلنا مواطن الضعف في كتاب ويلز ، خليقون  
بأن نشق - استناداً الى ما حققه من نجاح كبير - بأن  
السنة التي وضعها سوف تتبع ليخرج الى النور تاريخٌ يُعبر  
تعبيراً أوفى وأتم عن معارفنا الحاضرة واستشرافنا الجديد  
للاشياء . إن كل تقدم سوف يقود الى تقدم غيره ، كما تتبع  
الخطوة الخطوة ، حتى نبلغ أعلى السلم التي تنتهي بنا الى  
اهدافنا .

### « التاريخ الجديد » سيكون تاريخاً للحضارة

ومع اعترافنا بأن « التاريخ الجديد » ما يزال في حال  
مأثمة ، نستطيع أن نؤكد ، في ثقة واطمئنان ، انه سوف  
يأخذ نفسه بالعناية المتزايدة ، شيئاً بعد شيء ، بمشكلات  
النشاط الانساني على هذه الارض . وكاتب هذه السطور ليميل  
الى الاعتقاد بأن التاريخ الجديد سيكون تاريخاً للحضارة  
ولكنه لا يستغرق الناس جميعاً منذ بدء الزمان ، بصرف  
النظر عن المناخ ، والقارة ، واللون ، لان تاريخ الحضارة لم  
يكن في الواقع وحدةً متماسكة . ومن هنا يبدو له ان  
التاريخ الجديد سيكون سلسلةً كاملةً من تواريخ الحضارة  
التي ازدهرت في عالم متعددٍ متخاضمٍ ظهرت فيه الشعوب  
ثم زالت بعد أن اقامت حضاراتٍ شخصية الى درجة لا  
نستطيع معها إلا ان نعتبر كلا منها تمدناً فريداً . وهكذا

بنى الشعب الصيني ، خلال القرون ، حضارةً لا خلاف في انها قائمة بنفسها . وكذلك فعل الشعب الهندي . وايّ خدمة يمكن ان تُسديها إلينا دراسة هاتين الحضارتين المتميزتين غير فهمها لذاتها ، ووصفها تعبيرين شخصيين الى حد بعيد عن سعي الصينيين والهنود الى ان يلائموا بين ذواتهم وبين الحالات الخصوصية التي أحاطت بهم في دنياهم العريضة . وهناك ، على هذا الفرار ، أو كان هنالك ، حضارات فارسية ، وعربية ، ويونانية رومانية وكثيرات غيرها . ومع تسليمنا بضرورة الاهتمام بهذه الحضارات جميعا فان في استطاعتنا ان نوّكد ان غايتنا العظمى ، نحن الذين نحيا اليوم في اوروبة والولايات المتحدة ، تستهدف الحضارة الاوروبية او الغربية التي نوّلف عنصراً من عناصرها لا يتجزأ ، عنصراً قوياً مناخلاً الى حد بعيد .

هذا الكتاب \* مدرسي يعني بالحضارة الاوروبية

ولنكتف بهذا القدر من الكلام على « التاريخ الجديد » وتبليّوره النهائي في تاريخ للحضارة او سلسلة تواريخ للحضارة . وليس من شك في ان الوقت قد حان لاجراخ مثل

\* يتكلم المؤلف هنا عن كتابه الضخم الذي نقلنا عنه هذه الفصول

واسمه : « تاريخ اوروبية من عصر الاصلاح الى الوقت الحاضر » *History of Europe from the Reformation to the Present Day* .

ونحن نرجو ان نفرغ لترجمة هذا الكتاب كله في وقت قريب ان شاء الله .

[ المغرب ]

هذه المؤلفات ، بيد انه لما كانت هذه المؤلفات ستظل تحمل ، الى وقت طويل ، طابع المحاولة فان كتاباً كهذا الكتاب - يعترف بأنه موضوع للمبتدئين - غير مؤهل للقيام بمثل هذه المهمة الرائدة . ذلك بان الكتاب المدرسي ليس منبراً مناسباً لتلك المناقشات النظرية بين المتخصصين ، وهي التي يجب ان تنتهي ، كما اشير سابقاً ، الى درجة ما من التقرير قبل ان يكون في مقدور التاريخ الجديد ان يتبلور في شكل من الاشكال . واذ كان الكتاب المدرسي لا يتسع ، بطبيعته ، للجدل والنقاش ولا يستطيع ان يتخذ موقفاً متقدماً تُثار فيه مختلف المشكلات فان اقصى ما يطمح فيه ان يجمع بين دفتيه طائفة من النتائج المقررة تقريراً يختلف قوةً وضعفاً . انه عمليٌ في اقتناعه بان الحقائق ذاتها يجب ان تتقدم على ايما جهود يُبذل لتعليلها . من اجل ذلك لم يكن هذا المؤلف تاريخاً للحضارة الاوروبية ولكنه مُدخِلٌ لمثل ذلك التاريخ ، وهو يرجو ان ينظر اليه الناس هذا النوع من النظر . ونظرة سريعة الى نهج الكتاب والموضوعات التي يعنى بها تكفي لتوضيح ذلك . انه يوجه اهتمامه من اول الطريق الى آخرها نحو اوروبة الغربية كلها ونحو الرجل الاوروبي في مختلف احواله ، ويقر بوجود حركة تطورية متصلة استغرقت عدة ادوار منذ ذلك التائل البدائي الذي تتصف به بربرية القرن السادس ، حتى هذا الحصب وهذا التنوع المدهشين الذين يميزان القرن

العشرين . إنه يعنى بالطبقات الاجتماعية والنظم السياسية التي عرفتھا الدول الأوروبية في نشوئها وتطورها ، وُيدخل في حسابها الحركات الاقتصادية والفكرية الحديثة ، مسجلاً تطور الآداب والفنون . من اجل ذلك كله كان هذا الكتاب ، في جوهره ، تاريخاً للحضارة الأوروبية . بيد انه لما كان غير مبنيّ على اساسٍ من بحثٍ نظريّ سابقٍ يُعنى بتقرير العلاقة بين العناصر المؤلفة للحضارة بعضها ببعض آثر المؤلف ان يدعوه ، في تواضعٍ ، مجرد تاريخ لأوروبا وان يزيد في التخصيص فينصّ على انه تاريخ لأوروبا منذ الاصلاح الديني حتى يومنا هذا .

## ٢ . حضارة اوروبة في العصر الوسيط

إذا افقتنا تاريخنا هذا بالكلام على عصر الاصلاح الديني Reformation كان اول ما يؤخذ علينا التحكم الاعباطي في اختيار نقطة الابتداء . وليس من شك في ان الالتقاء بالقارىء ، من غير ما اندار ، في خضم مضطرب من الاحداث الانسانية يقضينا ، على الاقل ، بعض الشروح التي تساعده على ان يكتشف المكان الذي هو فيه . ولما كنا لن نتكاف في سبيل ذلك ، مسايرة الحياة الانسانية حتى منابعها البعيدة لنكتفي بلحة نلقها على الجانب الذي يقودنا مباشرة الى عصر الاصلاح فأنا نجد من الحكمة بل من الضرورة ان نعود القهرى الى ذلك المفترق الذي سقطت عنده الامبراطورية الرومانية ، والذي اغارت فيه القبائل الجرمانية والسلافية على اراضيها . هنا من غير شك يقوم معلمٌ شاق ؛ ومن هنا بلا خلاف بدأ التاريخ الاوروي كشيء متميز عن التاريخ القديم او تاريخ البحر الابيض المتوسط . ان الفأ من السنين لتفصل ما بين سقوط الامبراطورية الرومانية وعصر الاصلاح ، وهي مدة "حافلة" باحداث خطيرة غيرت

وجه أوروبا الغربية ومهرتها بحضارة جديدة .

### تحديد العصر الوسيط وعصر النهضة زمانياً

ولا غنية عن الكلام ، مهما كان موجزاً ، على هذه الألف سنة التي يمكن القاريء من فهم الحال التي ستواجهه في عصر الإصلاح . وإذا كان من غير النادر اعتبار عشرة القرون الممتدة من سنة ٥٠٠ ب.م إلى سنة ١٥٠٠ ب.م حقبةً واحدة تدعى القرون الوسطى فإن من الأصوب ، في الجملة ، أن تُقسَّم هذه الحقبة إلى قسمين غير متساويين فنُدعو الأول منهما ، ويمتد من سنة ٥٠٠ إلى ١٣٠٠ ب.م العصر الوسيط ونَحْمِلِي جيد القسم الثاني الممتد من سنة ١٣٠٠ ب.م حتى الإصلاح الديني باسم النهضة أو الرينيسانس Renaissance وليس ثمة في ما يبدو لي كبير فرق بين أن ننظر إلى النهضة كحقبة مستقلة ، أو كطورٍ مضمحلٍ أخيرٍ من أطوار العصر الوسيط ، بل حتى كفجرٍ لحقبةٍ جديدة هي العصر الحديث . والواقع أن الشيء الوحيد الذي ينبغي أن يهتمنا حقاً ، في ما يتصل بتقسيمات التاريخ الزمانية ، هو مقدار ما تؤديه هذه التقسيمات من خدمة أو نفع . ولا خلاف في أن تمييزنا بين العصر الوسيط وعصر النهضة مفيدٌ جداً . فالحق أننا كلما درسنا هاتين الحقبتين درساً أعمق تبين لنا أن كلاهما تعجَّ بخصائص تميزها عن الأخرى . وفي ميسورنا أن نوجز

هنا الفروق البارزة بين هاتين الحقتين - وسنفتل الكلام عليها في ما بعد - فنقول إن الحقبة الوسيطة تمتعت بوحدة روحية فريدة ترجع الى ان سلطان الدين وسلطان الكنيسة كانا فيها مُطلقين غيرَ منازَعين ؛ في حين أن عصر النهضة فَجَّرَ أيضاً من الأعمال والفكرات الجديدة خليقاً بأن يبدد ، آخر الأمر ، الجوِّ الديني الذي غداهُ العصر الوسيط وشجعه . وبذلك البطء الذي يميز الحركات الانسانية ، وفي غير ما نجوةٍ من العوائق القاسية ، اتخذ الانسان في ذلك العصر الباديء حوالى سنة ١٣٠٠ ب.م موقفاً من الحياة جديدةً . ومن اجل ذلك كانت النهضة بمثابة ولادة جديدة ، أو بمثابة طور جديد من اطوار الانسانية في اوروبة الغربية على الأقلّ .

وفي هذا الفصل سنحاول ان نحدثك عن العصر الوسيط حديثاً موجزاً جداً ، في حين سنعرض في الفصل التالي ، بشيء من الاسهاب ، لخصائص عصر النهضة او الرونيسانس .

### في العصر الوسيط نشأت الشعوب الاوروبية الكبرى

وليس بين الظواهر الحاسمة في القرون الوسطى ما هو اقوى وأبرز من نشوء الشعوب الاوروبية الكبرى - الايطاليون والفرنسيون والاسبان والانكليز والجرمان - متسعةً بخصائص قومية معينة ، ومرتبطةً ببقاع جغرافية

خاصة أصبحت منذ ذلك الحين ، ومن غير ما انقطاع ،  
أوطاناً لها . والواقع ان كل شعب من هذه الشعوب  
اصطدمَ بضروبٍ من المشكلات السياسية والاجتماعية  
والاقتصادية والدينية تشبه الى حدٍ بعيد تلك التي اصطدم  
بها ساؤها . وليس من ريب في ان هذه المشكلات هي  
التي تقرّر طابع العصر الوسيط وتكشف لنا عن مزاجه  
الحاص . وخير وسيلة لفهم ذلك المزاج أن نركّز اهتمامنا  
على العوامل الثلاثة البارزة في ذلك المجتمع ، أعني نظام  
الأقطاع ، والمدن ، والكنيسة . فالحق أن هذه جميعاً ،  
والكنيسة بخاصة ، خلعت على ذلك العصر طابعاً خاصاً  
وصفةً مميّزة .

## « أ » - نظام الاقطاع

### نظام الاقطاع مجموعة من المؤسسات البراتية

إذا اتفقنا على أن العصر الوسيط بدأ في ختام القرن  
الخامس بتلك الفوضى الخفيفة التي نجمت عن سقوط الامبراطورية  
الرومانية وغارة القبائل الجرمانية في آنٍ معاً ، وإذا ادركنا  
بعد ان اوروبة رفعت نفسها ، خلال القرون السبعة أو  
الثمانية التالية ، الى نظامٍ يمتاز باستقرار نسبي ويمثل الاطوار  
الأولى لحضارةٍ جديدة زاهية ، اذا فعلنا ذلك استطعنا ان  
نتخلص من نزعة شائعة عند المفكرين السطحيين من غير

ما مبرر ، هي النظر الى هذه الحتبة نظرة الازدراء والاستخفاف . والواقع أن هذا النظام كان بعيداً عن النضج ، كما لا نحتاج الى ان نؤكد ، ومن هنا جاءت مشكلات اوروبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، في العصر الوسيط ، وعليها كلها طابعٌ بدائي ساذج . والذي نراه ان هذه المشكلات تنضوي ، في جوهرها ، تحت لفظ الاقطاعية . فما هو نظام الاقطاع ؟

لعل خير ما نستطيع قوله في نظام الاقطاع إنه مجموع المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تمثل المحاولة الاولى يقوم بها مجتمع ناشئ ، طامح للارتفاع بنفسه فوق مستوى بربرية جافية قاسية . وفي ظل النظام الاقطاعي ، نجد المجتمع الاوروبي يعبر عن نفسه في بساطة ووضوح ، رغم تعدد الالوان المحلية واختلافها اختلافاً كثيراً . هنالك في الاساس طبقتان ليس غير : الحاكمون الذي يملكون الارض ، والمحكومون الذين يحرثونها . والارض هي شكل الثروة الاوحد ، وهي التي تقرر شكل المجتمع . وليس من ريب في ان الحاكمين كانوا مسلحين ، وكان لهم شرف الانتساب الى طبقة وراثية من المحاربين ، في حين ان المحكومين ، العزّل ، كانوا مرتبطين بالارض بوصفهم طبقةً من العبيد المزارعين ، بالوراثة . ولم يكن ثمة حكومات بالمعنى العصري ، تقبض على زمام الادارة النظامية في مساحات واسعة . كان السيد الصغير ، في الواقع ، اميراً في ممتلكاته الخاصة برغم

أنه كان تابعاً ، من ناحية نظرية ، لسيد اكبر منه ومن ثم  
تملك . فكان من نتيجة ذلك ان أصبحت اوروبه مؤلفة ،  
عملياً ، من إمارات تعد بالآلاف ، لا يربط ما بينها غير  
سبب واحد . وكانت الوحدة الاجتماعية الاقتصادية في هذا  
المجتمع المتأخر هي تلك البرزة التي تُدعى الاقطاعة *manor*  
وكان يتعاون على خدماتها الفلاحون القاطنون مجتمعين في القرية  
والمحكومون إما مباشرة وإما بالواسطة ، من قبل الأمير  
النازل في قصره بضواحي القرية .

#### العصر الوسيط نتيجة لاخفاض مضارة المردم القويمة

وإذا أمعنا النظر في المادة التي بسطنا ، استطعنا ان  
نعتبر الصدر الاول من العصر الوسيط ، بالنسبة الى تدفق  
القبائل الجرمانية والسلافية على اوروبه تدفقاً ظافراً يحمل  
طابع البداوة او نصف البداوة ، عاملاً قوياً في تزيق أوصال  
الأمبراطورية الرومانية . لقد اضحلت ثقافة المدينة التي  
ازدهرت في عصر الرومان ، وانتهت الى كسوفٍ كامل  
وإن تكن قد شرعت في الانحطاط قبل مجيء البرابرة .  
أما اقتطاع الأراضي فجري ، في الجملة ، على هذا المنوال  
البيسط : استولت طبقة مختارة من المحاربين على ملكية  
الارض ثم اجازت لسواد السكان العمل عليها لقاء أجرٍ  
يقتضى ، في حال فقدان المال ، خدمات شخصية ومنتجاتٍ  
طبيعية . ولقد حكم المحاربون رعيتهم كطبقة نبيلةٍ ممتازة ،

في حين ان الفلاحين الخاضعين للسلادة انخطوا الى حال من العبودية الشرعية جعلتهم في مستوى المتاع أو ارفع قليلا . والكلمة الجامعة التي تصف هذا الوضع المركب كله هي « الاقطاعية » .

### « ب » نهضة المدن

حياة المدينة تعود من صربير حوالي سنة ١٠٠٠ ب م وما زال هذا النظام البدائي في الاجتماع يطبع وروبة الغربية كلها بظابعه حتى ظهر حوالي سنة الف بعد الميلاد عنصر جديد لم يعقد كيان المجتمع فحسب ، بل احدث اختاراً عقلياً قنّدر له أن يقوِّض الأسس الروحية التي قام عليها العصر الوسيط . ولم يكن هذا العنصر الجديد غير نشوء المدن . وإذ نشأت المدن في جورٍ من البعث التجاري والصناعي فقد كانت تمثل اجتماع رجالٍ عازمين على أن يأخذوا بألوانٍ من النشاط جديدة ، غير زراعية ، وعلى أن يضاعفوا أسباب الراحة في المعيشة ، ويدافعوا عن أنفسهم ضد زعامة قائمة على الأرض ومعادية بالفطرة للتجار الذين يحرصون أشد الحرص على أن يمرروا أنفسهم من تلك الرقابة السياسية التي تفرضها عليهم طبقة من المحاربين الطغاة .

تقدم المدن السريع من النواهي المادية والسياسية والثقافية والواقع أن انتشار المدن ، فوق الرقعة الاوروبية ،

غير الصورة تغييراً كاملاً . فما هي الا فترة حتى وجد  
أمرء الاقطاع انفسهم ، في قصورهم المتناثرة ، أمام جماعات  
من أوساط الناس يفوقونهم ثروة وثقافة وقوة عسكرية .  
وكان لظهور هذه الطبقة آثار عاجلة قضت بتخلف المحاربين  
الاقدمين عن مكان الزعامة وتنازلهم عن كثير من دعاوهم  
القديمة وبخسراتهم ، نسبياً ، مكانتهم السياسية والاجتماعية في  
وجه تقدم السكان المدنيين الذين كانوا ، بدورهم ، متحصنين  
في قلاع شاهقة ، والذين اكتسبوا ، بالشجاعة والأقدام ،  
موارد مادية كانت تنمو مع الأيام ، واستشرافاً Outlook  
عقلياً كان يتسع في اطراد .

### العصر الجديد يرفع الحضارة الوسيطة الى أوجها

وبتعدد المدن وتضاعف الوان النشاط التي عاش سكان  
المدن عليها ، بلغ المجتمع الوسيط في القرنين الثاني عشر  
والثالث عشر أوجّه . والحق ان كثيراً من اهل زماننا ،  
وبخاصة بين الفلاسفة ورجال الفن ، لينهبون الى القول بأن  
هذا الأوج يمثل توازناً وانسجاماً بين قوى الحياة والفن لم  
يتحقق في التاريخ الا نادراً . ولكن مهما كان الازدهار  
الروحي في العصر الوسيط رائعاً فإنه ليس موضع عناية هذا  
الكتاب . إننا سنجتزئ ههنا بتقرير الحقائق الكبرى عن  
ازدهار المدن ، وبتصوير الأثر الذي تركته المدينة في التطور  
الاوروبي من الناحيتين السياسية والثقافية .

المدينة تروج للحكم الذاتي ، ومما تم للملكية المطلقة  
لما وجدت المدينة ان النظام السياسي الاقطاعي القائم  
يجول بينها وما يتبغى ، وأن عليها أن تقاوم لكي تكفل  
لنفسها الحياة اصطنعت مبدأ سياسياً خاصاً هو مبدأ الحكم  
الذاتي . ففي حينما نشأت المدن ، ظهرت عاجلاً او آجلاً  
حركة " تنزع الى الاستقلال والاكتفاء الذاتي . ومن طريق  
العهود أو البراءات المنزعة من الامراء المتزاعاً ، كسبت  
المدن أقدم حرياتهما ، هذه الحريات التي كانت كل مدينة تعمل  
على توسيعها بواسطة المنح الإضافية ، كلما امكنتها الفرصة .  
وقد نجحت بعض المدن آخر الامر ، وبخاصة في ايطالية  
والمانية ، في أن تصبح جمهوريات حرة منفصلة أو تكاد  
عن الدولة الاقطاعية التي ظهرت في وسطها ، في حين ان  
المدن التي ازدهرت في انكاثره وفرنسة ساعدت بصورة  
شعورية او بصورة لا شعورية على التسكين لسلطان الملك ،  
لأن السلام الحيوي للتجارة كان مضموناً في ظلّ الملك  
اكثر منه في ظل نبلاء هائجين لم تكن الحرب بالنسبة اليهم  
شيئاً اكثر من التوسع في رياضتهم المفضلة ، أعني القنص  
والطرد . ولا خلاف في ان المدن تعتبر عند التحقيق العوامل  
التاريخية الرئيسية في سير الحضارة التدريجي نحو استبدال  
الدولة الملكية المركزية بالنظام الاقطاعي المنفك الأوصال .  
وعلى الرغم من أن رجال المدن الأشداء كانوا في صراعهم  
في سبيل الحياة لا يفكرون إلا في ذواتهم وفي مصالحهم

الخاصة فقد خدموا التطور الانساني باكثر مما احتسبوا بسبب  
من انهم كانوا يمثلون قوى اقتصادية وقدر لها آخر الأمر  
أن تنظم المجتمع تنظيماً سياسياً جديداً يكن ما في الكلمة  
من معنى . وقد اتخذ هذا التنظيم الجديد ، كما سوف نرى ،  
شكل الملكية المطلقة ، تلك المؤسسة الشهيرة التي ينبغي ان  
تحتسب ، عند التحليل الاخير ، اثرها من آثر نمو المدن  
وازدهارها .

### المدرسة تمرير السبيل لنظرة دينية وفلسفية جديدة في الحياة

أما من الناحية الثقافية فقد كان المدن أثر ليس أقل  
شأناً . ذلك ان اتصالاً وثيقاً قام بين هؤلاء الناس الذين  
عاشوا معاً ضمن تحريم سرور المدينة الضيقة ، فتنازعوا على  
المصالح المتعارضة حيناً ، وتعاونوا على وضع الخطط المشتركة  
حيناً ، وشجذوا مواهبهم بحكم ضرورة العمل الدائب  
لمواجهة الحالات الجديدة . وقد اكتسب بعض اولئك المدنيين ،  
في مهارة التجار وحذقهم ، ثروة واختباراً هما نتيجة البحث  
عن العمل والمغامرة ، في المدن المجاورة أو البلدان النائية ،  
في حين عزز آخرون سيطرتهم على الحياة من طريق التمرس  
البارع بصناعاتهم الخاصة كنسج القماش ، ودبغ الجلود ،  
وضرب الاسلحة . وليس غريباً على هؤلاء ، بعد ان عاشوا  
عيش تجريبية واختبار ، وبعد أن نالوا جزاء نشاطهم بملكيات  
نامية باطراد ، ان يتزعوا الى اطراح قيود التقليد لا في

المسائل التي تمس مصالحهم المادية والسياسية فحسب ، بل في المسائل العقلية والروحية أيضاً . وهل كان شيء غير هذا ممكناً أو جائزاً ؟ إن الناس حين يتعودون استعمال عقولهم ، بجرية ، في السعي المباشر وراء كسب الرزق ، لا بدّ لاجئون الى الوسيلة عينها في الاشواق العليا المتمثلة في الفلسفة والدين ؛ والفلسفة والدين إنما يمثلان أبداً وفي كل مكان محاولةً الى صوغ تعبيرٍ نظري عن التجارب التي تتم للانسان في طوافه الدنيوي . ويلزم عن ذلك أنه اذا استطاع مجتمعٌ زراعي بدائي ، كالذي سبق ازدهار المدن ، أن ينشئ ديناً وفلسفة يعبران تعبيراً ملاءماً عن اهدافه وآماله ، فان مجتمعاً تجارياً متحركاً كالذي احدثته نهضة المدن خليقاً بأن يغدو متسائلاً كثير الانتقاد للتراث الذي انتهى اليه ، وان يفرغ لصوغ أفكار ونظريات جديدة خاصة به .

العصر الوسيط محاولة لإقامة مجتمع مسيحي تسيطر عليه كنيسة مطلقة ومهما يكن من أمر فإن علينا قبل ان ننظر في الثقافة التي شجعتها المدن أن نلمّ بعض الامام بالثقافة القديمة التي كانت تهيمن على تلك المدن يوم ولادتها والتي نشط المدينيون بعدئذٍ منهاضتها . والواقع ان ثقافة العصر الوسيط كانت في الدين والفلسفة اللذين كانا سائدين في ذلك العصر ؛ وفي ميسورنا ان نختصرها بكلمة واحدة : النصرانية . وفي سبيل تحقيق سيادة النصرانية المطلقة نشأت منذ العصور

الرومانية مؤسسة ذات سطة عليا في الكنيسة المسيحية الكاثوليكية . وفيما يجب ان يُنظر الى الدين النصراني المؤلف من مجموعة من العقائد الراسخة الوطيدة بوصفه الجوهر الروحي للعصر الوسيط ، فان الكنيسة يمكن ان تُعتبر مؤسسة غرضها بثّ القيم الروحية الخاصة بالنصرانية ، وتوكيدها توكيداً يضمن لها الغلبة والفوز . إن هذه المؤسسة هي حجر الزاوية في بنيان الحضارة الوسيطة ، ومن هنا كان درسها ضرورياً جداً لفهم أوروبا في العصور الوسطى .

### « ج » الكنيسة

#### نشوء النصرانية والكنيسة

إن اصل المسيحية يمكن ان يلتبس في موقف عاطفيّ جديد وقفته شعوب العالم اليوناني الروماني من مسائل الحياة والموت الكبرى . فاليأسون المتعبون من واقعات الحياة المحزنة في هذه الدنيا ، المتزايد عددهم باطراد ، طفقوا يبحثون عن النعيم في حياة تُترجى بعد الموت . واخيراً ، وبأنحاء من يسوع الناصري المسمى مخلصاً ومسيحاً ، وتوجيه من جماعة من تلامذته المخلصين ، تكوّنت مجموعة من المعتقدات تعلم ان الحياة وادب الدموع ، وتعد بأن تعوّض الناس من مختلف الآلام البشرية راحةً اخيرة من طريق الاتحاد بالاله الواحد الذي ليس غيره ، أبينا السماوي . وقد احرز الدين الجديد ، الذي وُسم بالمسيحية ، نصراً بارعاً في اكتساب

المؤمنين الذين ما لبثوا ان احسوا - وهم المنتشرون في بقاع البحر المتوسط العريضة وسط كثرة وثنية معادية - ضرورة الارتباط الوثيق الذي يشدهم كمثل البنيان المرصوص . ومن هنا انبثقت الكنيسة المسيحية التي كُتبت في مطلع القرن الرابع قويةً شديدةً - رغم ما كانت تتقاه من الاضطهاد الدوري من الوثنية السائدة - بحيث استطاعت ان تقنعَ الحاكم الجديد ، الامبراطور قسطنطين الكبير ، بحقها في حماية القانون . ( براءة ميلان سنة ٣١٣ ب. م . ) حتى اذا اصبحت وطيدة الدعائم لا تقاوم أخذت نفسها بالقضاء على جميع المعتقدات والمنظمات الدينية المعادية لتستوي ، خلال الأجيال القليلة التي عقيبت الاعتراف بها ، على عرشها ، في العالم الروماني كله .

### تنصر البرابرة ونابيس كنيستين مسيحيتين

وعندما اكتسح برابرة الشمال ، السلاف والجرمان ، الامبراطورية الرومانية عملت الكنيسة على اجتذابهم اليها ، فتمكنت بمجهودات تبشيرية استغرقت عدة قرون واتسمت بطابع البطولة ، من ان تحقق غايتها باكثر مما كانت تحسب . وقد لزم عن ذلك ان العالم الاوروبي الذي خرج تدريجياً من فوضى القرون الوسطى كان عالماً مسيحياً موّحداً ، في العقيدة والكنيسة . هذا من الناحية النظرية . ولكن الواقع كان غير ذلك . فقد شهدت اوروبة ، بسبب المنازعات

الاكبركية التي لا نستطيع بحثها هنا والتي بدت متعذرة التسوية ، قيام كنيستين مسيحيتين ، الاولى في الشرق ، والاخرى في الغرب . وتعرف الكنيسة الشرقية التي يرئسها بطريرك القسطنطينية بالكنيسة اليونانية الارثوذكسية ، في حين يرئس البابا الكنيسة الغربية ، المعروفة بالكاثوليكية ، والتي اصطنعت اللغة اللاتينية اداة للتعبير في عبادتها وفي ما يصدر عنها من فكر . وبذ كانت الحضارة التي تُعنى بدرستها في هذا الكتاب قد نشأت في بلاد الكنيسة اللاتينية فستكون هذه الكنيسة ، من دون شقيقتها الشرقية ، مدار الفقرات الباقية من هذا الفصل .

### الكنيسة هي السبيل الوحيد للخلاص

كان الغرض الرئيسي من الكنيسة ان تكون واسطة لانقاذ الرجال والنساء من اللعنة الأبدية التي حلت عليهم بسبب من خطيئة ابيهم الاولين ، آدم وحواء . وبفضل يسوع المسيح ، وهو في نظر النصارى ابن الله الوحيد ، واقتدائه البشر بدمه ، بحيث اللعنة الاصلية واصبح الخلاص ممكناً للمرة الاولى . وساد الاعتقاد بان المسيح نفسه استودع الكنيسة حق الافادة من هذه الفرصة الجديدة باعتبار انه سمي بطرس الرسول ، بالذات ، ليكون خلفاً له في حكم جماعة المؤمنين . [ « وانا اقول لك ايضاً أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة ابني كنيسة ، وابواب

الجحيم ان تقوى عليها . « إنجيل متى ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ١٨ ] وكان على الكنيسة ان تقضي تدريجياً وبعد نضال غير يسير ، على عدد من المنظمات التي ادعت هي ايضاً انها مسيحية ، معتبرةً هذه المذاهب المتباينة بدعاً او هرطقات محرمة . ومن ثم أُعلن جميع المسيحيين المنتسبين الى هذه الكنيسة ، التي دعت نفسها كاثوليكية ، بطرس الرسول مؤسساً ثانياً للمسيحية ، واتخذوا مدينة رومة عاصمة لها . ولما كان المعتقد الاساسي عند جميع المسيحيين الصالحين ان يسوع المسيح ، ابن الله ، قدم نفسه قرباناً على الصليب ليهدىء نائرة الاله ، ابيه ، على ذرية آدم فقد كان سهلاً وطبيعياً ان تعتبر الكنيسة ، التي أُعلن المسيح مؤسساً لها ، السبيل الوحيد المفوض من قبل الله ، لحل الخلاص الى كل من يطلبه من الحاطثين . وقد عبر احد الاباء المسيحيين عن ذلك في ايجاز حين قال : « ليس من خلاص خارج الكنيسة . » وان هذه القوة التي تلقي الرعب في القلوب والتي مكنت الكنيسة من ان تفتح ابواب الجنة والجحيم وتوصدها هي التي تفسر لنا ما كان هذه المؤسسة من سلطان عظيم على عقول الناس في ذلك الزمان .

أسرار الديانة المقدسة هي روح الكنيسة

وكان من هم الكنيسة ، بالنسبة الى هذا المقام السامي الذي تم لها ، ان تبقي اتباعها عن ذكرٍ لحالة الخطيئة التي

هم فيها ، وذلك بان تشملهم بعطفها ومحبتها . من اجل  
هذا عُنت الكنيسة باصطناع عدد من الاجراءات المهمة ،  
فأنشأت قانون إيمان يتضمن اصول العقيدة المسيحية ، واخرجت  
للناس مجموعة من الصلوات تسمو بالنفوس وتصلح لمختلف  
مناسبات الحياة ، ونظمت سلسلة من الطقوس توجهت باحفلها  
بالوقار واورقها في النفس وهو القداس . ولكنها فوق ذلك  
كاه وضعت أسرار الدين السبعة كأداة ضرورية فعالة  
لادراك الخلاص الذي كان الشغل الشاغل لكل رجل ،  
وأمرأة ، وطفل . والواقع ان هذه الاسرار تنطوي على  
كثير من تعاليم الكنيسة وطقوسها بحيث يكشف لنا  
مجرد الامام بها لا عن اهمية تلك المؤسسة البالغة ، طوال  
القرون الوسطى ، فحسب بل عن مبلغ تأثر الفرد بسطانها  
الروحي ايضاً . فعن طريق نظام الاسرار هذا استطاعت  
الكنيسة ان توافق ابناءها في حياتهم كلها من المهد ، الى  
ظلمة القبر .

### أسرار الربيه السبعة

نبدأ بسر الكهنوت الذي يمنحه الاسقف ، وهو خاص  
برجال الدين . هذا السر يخضع على المرشح للكهنوت صفة  
الكاهن ويحيز له منح سائر الاسرار المقدسة خلا من التثبيت  
المقصود ايضاً على الاساقفة . وقد وضع سر الكهنوت حداً  
فاصلاً يقسم الجسم المسيحي الى قسمين ، بعد إذ ميز رجال

الدين ، المدعوين خصيصاً خُدمة الله ، عن جمهرة الناس العاديين . وبسر المعمودية يكتب الوالد عضوية الكنيسة . والماء المقدس الذي تمسح به جبهته أما يفيد ان نصيبه من خطيئة آدم قد سقط عنه ، وانه اضحى مسيحياً وبنياً لله . وعندما يبلغ الصبي او الفتاة حوالي الثانية عشرة من العمر وبعد ان تم لكن منها معرفة صلحة بتقنون الايمان وتقاليد الكنيسة بمسح الاستقف سر التثبيت بأن يمسخ جبينه بالزيت المقدس والبلسم . والغرض من هذا الصنيع جعل الناشيء المسيحي اقوى على مغالبة الاغواء في معركة الحياة . اما إذا استجاب ، برغم ذلك ، للاغواء فوقع في الخطيئة فانه يستطيع ان يلتمس الغفران من طريق سر التوبة ( او سر الاعتراف ) وهو يقتضي طلبه اربعة اشياء « أ » ان يأخذه الندم على الخطيئة التي اعترف . « ب » ان يعترف شفهاً لكاهن من الكهان . « ج » ان يتلقى الحبل من كاهن ما . « د » ان يرضى بان يكفر عن خطيئته تكفيراً خاصاً ، وذلك من طريق الحج او التصدق وفق ما يراه الكاهن مناسباً . وفي ساعة الوفاة يقف الكاهن الى سرير الميت فيقوي روحه على الرحلة الابدية ويمسحه بالزيت المقدس . من اجل ذلك يدعى هذا العمل سر مسحة المرضى . ويربط سر الزواج الرجل والمرأة برباط الزوجية المسيحية الشرعي ، وهو رباط ليس للقوة الانسانية ان تحله . ان الكنيسة التي جمعت ما بين الزوجين هي وحدها التي تستطيع ان تلغي

ذلك الزواج . وحتى الكنيسة لا تستطيع ان تفعل ذلك الا في حال واحدة ، وهي حينما تفعل احدى التواند الطقسية في حنة الزواج . والخبراً فان هناك سر القربان المقدس « الافخارستيا » وقد نشأ عن العشاء الربني كما وُصف في الانجيل ويشمل تكريس الكهني لخبز والخمر ، واستحالتها المعجزة الى دم المسيح وجسده ، وتقديمها في هذا الشكل انكرس الى العزة الالهية لحياة لذكرى تضحية المسيح الاصابة على الحليب . ويُعتبر تغير الخدمة واستحالتها في الهيكل السر الاعظم في الكنيسة . وقد تظور سر القربان المقدس انبراً ، بعد ان احيط بطقوس الغناء المحكم ، وبعد ان اصطنع فيه كل ما يوقع الهيبة في النفس ، من شموع ونجور وثياب ذات بهاء ، فانبثقت منه تلك الصلاة الفخمة المعروفة بالقداس .

### مكومة الكنيسة وادارتها

إننا مع اعترافنا بان هداية المؤمنين الروحية المارة في نظام الاسرار كانت هي العمل الرئيسي للكنيسة ، جديرون بان لا تفعل اعمالاً اخرى اثبتت من هذا النظام وكانت اكثر اتصالاً بالحياة الدنيا . وإذا ذكرنا ان حكومة الكنيسة الخاصة كانت تقع على عاتق رجال الدين دون غيرهم ، وان الكنيسة كانت تتألف ، في جانبها المادي ، من بيوت للعبادة لا تُعدّ ، ومراكز اكبركية ، وممتلكات

اقطاعية وغير اقطاعية عديدة تعين علينا ان نعترف بان نشاط الكنيسة الديني لم يكن قليلا ، ولا ضئيل الشأن. ولكي تتمكن الكنيسة من القيام بتبعاتها الكهنوتية ، من روحية وادارية ، فقد اصطنعت لنفسها نظاماً محكماً يتد من كاهن الابرشية ، في ادنى درجات السلم ، حتى البابا في اعلاها . كانت الابرشية وحدة الادارة الاقليمية ، وفوق الابرشية كانت الاسقفية ، ولها السطة على عدد من الابشيات برئاسة الاسقف . وتتألف المقاطعة من عدد مختلف من الاسقفيات ، ويتمتع فيها بالسلطان الاعلى اسقف كبير يعرف برئيس الاساقفة . وتتوزع هذه السلسلة المؤلفة من الكاهن والاسقف ورئيس الاساقفة بالبابا ، رأس الكنيسة غير منازع ، المقيم في رومة القديمة المكرمة . وتضم رومة ، بوصفها محوراً لدولاب الادارة الكنسية ، عدداً لا يحكاد ينتهي من الموظفين ، بعضهم ملحق بالديوان البابوي ، وبعضهم بالمحاكم ، وآخرون بالحزارة المالية . وبرز هؤلاء الموظفين المركزيين ، على الاطلاق ، مجمع الكوادلة ، وكان البابا البابا يسمى هؤلاء ليشاركوه في حكم الكنيسة ، حتى اذا توفي تحملوا تبعه اختيار خلف له .

الفرد الرهبانية: نعب عن روح الورع في العصر الوسيط

الى جانب هؤلاء الموظفين الذين وقعت على عواتقهم اعباء حكومة الكنيسة ، واستجابةً للروح الزهدية التي طبعت

العصر ، نشأت مجموعة اخرى من رجال الكنيسة يجب ان  
تعتبر الظاهرة الاكثر خصوصيةً للمسيحية الوسيطة . وليست  
هذه المجموعة غير الرهبان والراهبات الذين انتظموا في عدد  
كبير من الرهبانيات اسمها رجال ونساء تعمر نفوسهم حماسة  
دينية لا يخمد ضرامها . والواقع ان بعض الرهبانيات  
الاكثر شعبيةً انتشرت انتشاراً سريعاً في الصعيد الاوروي  
كاه ، فكثير المنضوون تحت لوائها ، واستطاعت ان تحقق  
لنفسها ، من طريق هبات المؤمنين السخية ، مركزاً تجسد  
عليه قوامه اراض واسعة وعقارات ضخمة . واقدم هذه  
الرهبانيات وابعدها شهرةً رهبانية البندكتيين التي اسمها  
القديس بندكتس St. Benedict في القرن السادس ( ٥٢٩  
ب.م ) في حين ان الكوتوزيين Carthusians وغيرهم من  
اقل الرهبانيات المتأخرة لم يبلغوا بعض ما بلغه البندكتيون  
من حيث الثروة ، والشعبية ، والسلطان .

### الرهبان المتسولون

وفي القرن الثالث عشر ظهرت الفرقتان الشهيرتان :  
الفونسيكانية والدومينيكانية ، في جو متقدٍ من الاحياء  
الديني ، حاملتين الى الدنيا المسيحية أمثلاً لثلاث بعض  
الاختلاف من التي كانت لسابقتها . كانت الفرق القديمة -  
وكالها منظم كثيراً او قليلاً على امثال البندكتي - تضع  
التوكيد على حياة التأمل الروحي المجتهد ، في عزلة عن العالم

ومغرباته . اما الفرنسيين والرومانيين فسعوا الى  
الأوساط المزدهجة بالبشر ليوزعوا على الفقراء والمعوزين  
الطاف الأحسان المسيحي . وإذا قد أخذوا أنفسهم بالفقر  
والعفة ، والطاعة - وهي نذورهم الأجرارية الثلاثة  
- والتمسوا رزقهم ، اول الأمر على الأقل ، بالتنقل  
من باب الى باب واستجداء الناس فقد ميزوهم عن  
الفرق السوابق باسم « الاخوة المتسولين » .

#### تنازع السلطات بين البابا والاديرة

وكان يقوم على الاديرة رؤساء يدبرون شؤونها ، وكانوا  
ومرؤوسيهم من الرهبان خاضعين ، في العادة ، لسلطة  
الأسقف الذي يتفق أن يكون ديرهم واقعاً ضمن اسقفية .  
ولكن فرق الاخوة المتسولين ، وكذلك بعض رؤساء  
الأديار أحياناً ، التمسوا من البابا الحق في أن يكونوا  
مسؤولين أمامه ، دون غيره ، فاجبوا الى ذلك . وطبعي  
ان يفيد البابا من هذا التدبير ، فقد قيض له جيشاً من  
الأتباع المتصلين به مباشرة ، والمنبئين في أطراف العالم  
المسيحي كله . ولكن ربح البابا كان خسارة بالنسبة الى  
الأسقف . وقد نتج عن هذا النزاع بين السلطة المحلية  
والسلطة المركزية في الكنيسة أن كثيراً من الاسقفيات  
أصبحت مسرحاً لخلافات مريرة ، وإن تكن في الغالب  
محبوبةً بستار ، بين الاسقف وتابعيه من الكهان من ناحية ،

وبين رئيس الدير يؤيده الرهبان أو الاخوة من ناحية ثانية .

### الكليروس يؤلفونه الطبقة الاولى في المجتمع الوسيط

كان رجال الكنيسة ، من البسايا حتى الكاهن ، مضافاً إليهم رجال الفرق الرهبان ، يؤلفون طبقةً بيئمة الحدود والمعالم في المجتمع الوسيط يُطلق عليها اسم الأكليروس . وإن الاحترام الذي كان يتمتع به الأكليروس ليظهر من انهم احتلوا في كل مكانٍ من أوروبا المقام الأول وعرفوا بالطبقة الاولى . أما سائر سكان الدولة الأقطاعية فكانوا طبقتين : الاولى تنتظم النبلاء ، وتدعى الطبقة الثانية ، والآخرى تضمّ العوام وتدعى الطبقة الثالثة . ولم يكن لأهل الطبقتين الثانية والثالثة ، لا من الناحية النظرية ولا من الناحية العملية ، أيّ عملٍ في حكومة الكنيسة التي كانت مقصورةً إطلافاً على الطبقة الاولى : الأكليروس .

### الكنيسة تعمل كدولة مستقلة

على ضوء هذه المراجعة الموجزة لسلطة الكنيسة وحكومتها نجدنا أنفسنا الآن مهيبين أمام تهيئة الاتفاق على ان مكانها في المجتمع الوسيط كان مختلفاً جداً عن حالها اليوم . وفي الحقي ان الكنيسة كانت دولةً ، وكانت اكبر بكثيرٍ من الدول الاقطاعية التي كان للكنيسة سلطةٌ فيها ، بحيث أنها استطاعت أن تحجبها جميعاً . وبفضل هذا التفوق حقت

الكنيسة لنفسها ما يعرف بالحصانة ، اي انها اكتسبت من السلطة المدنية إعفاءً من الضرائب ، وحقاً للأكليروس في ان يكونوا مسؤولين امام المحاكم الكنسية دون غيرها . حتى إذا رُمي احد هؤلاء بجرم سبق الى القضاء الأكليريكي ليحاكمه قضاة الأكليريكيون وفقاً للقانون الكنسي . وكانت قرارات المجامع الكنسية واحكام الباباوات مادة هذا القانون الذي بلغ من شأنه ، في عالمٍ يسيطر عليه الأكليروس ، ان اصبح موضوعاً للدراسة التخصصية في الجامعات . ليس هذا فحسب ، بل إن المحاكم الأكليريكية كانت لها السلطة على الأهلين في بعض المسائل المهمة ، كالزواج والطلاق والنظر في الوصايا وتحقيتها . ومن هنا اصبح رجال الدين الخاضعون في كل شيء للسلطة الأكليريكية رعايا للكنيسة غير مسؤولين ، في حين دان سائر الناس بالطاعة لدولتين هما الكنيسة والدولة المدنية التي يقيمون ضمن تحومها ، وكل منهما تفرض عليهم سلطانها في مسائل معينة .

### الكنيسة تجبي العشور وتسيطر على التعليم

وكان للكنيسة عملٌ آخر حققت فيه حداً الدولة ، هو جباية الضرائب . وإذا كانت الكنيسة تملك ممتلكات إقطاعية واسعة ادّعت لها الحصانة ولم تدفع الى السلطات المدنية اي ضريبة عنها فقد تمتعت بموردٍ ليس بالقليل . وكان هذا المورد الذي يفيض من اجور الممتلكات هو قوام العائدات

الكنسية . وايا ما كان فالواقع ان موارد الكنيسة كانت اقل من ان تنهض بالنفقات الكبيرة التي يقتضيها نظامها المترامي الأطراف . ومن هنا اكتسبت الكنيسة الحق في ان تجبي ، في كل بلد قامت فيه ، ضريبة تدعى العُشُر ، وهي تبلغ نظرياً عُشر نتاج الأرض السنوي ، وإن نقصت عملياً الى ما دون ذلك في الغالب . فاذا علمنا ان الكنيسة - وقد اخذت نفسها بهداية النوع البشري الضال - تولت مقاليد التربية وأدارت مختلف المدارس القائمة آنذاك ، أخفنا لوناً جديداً الى الصورة العامة يمثل مدى سيطرة الكنيسة على نفوس المؤمنين ، واستحوادها على خيالهم . ولا يتوهمن أحدٌ لحظةً واحدةً ، أن قيام الكنيسة بالتوجيه التربوي وجبايتها للضرائب وإنشاء المعاصم كانت اقتضاباً غير مشروع . ففني فوضى المدة الأولى من العصر الوسيط ، يوم كانت دول أوروبا الصغرى ما تزال في طور التكوين فهي في مثل ضعف الاطفال ، انتهت هذه المهام كلها الى الكنيسة لأنها كانت السلطة الأشدّ قوةً ، وفي بعض الاحوال الاستثنائية ، السلطة الوحيدة التي احتفظت ، وسط انحلال المجتمع العام ، بالقدرة على البقاء .

الكنيسة ندمي المساواة بالدولة ثم السمو عليها

بيد ان الدول المدنية ما لبثت ان اشتدت ساعدها بفضل نو المدن ، كما رأينا ، وأحست بوطأة سلطان الكنيسة غير

العادي ، فكان الاصطدام بين الدولة والكنيسة أمراً لا مفر منه . والحق أن الاصطدام بدأ حتى قبل ان تصبح المدن قوة تذكر ، ليضج العصر الوسيط كله ، كما هو معروف ، بهذا الصراع . ومهما يكن من امر فيجب ان لا يفوتنا النص على ان هذا الصراع مناقضٌ لنظرية العصر السائدة ، تلك النظرية التي كانت تؤكد ان كلاً من الكنيسة والدولة من عند الله ، خلقها خدمةً لعباده ، واستودع إحداهما السلطة على ارواحهم ، واستودع الاخرى السلطة على أبدانهم . وعلى رأس هاتين المؤسستين المتممة إحداهما للثانية أقام الله البابا والملك ، وحباهما على التعاقب السلطتين الروحية والمادية على النوع البشري . ولكن لما كان الاباطرة والباباوات قد خرجوا في الواقع على العمود ، وانغمسوا في خلاف مستحرج مطرد بدلاً من ان يعملوا في تناغم وتجانس ، فإن بعض الباباوات الاقوياء من مثل غريغوريوس السابع ، وانوسنت الثالث ، وبونيفاسيوس الثامن تاقوا الى اطراح نظرية المساواة القديمة والأخذ بنظرية تبعية الامبراطور والحكام المدنيين أياً كانوا ، للبابا الذي يُعتبر وحده ممثل الله الحقيقي الناطق باسمه . وهكذا ذهبت النظرية البابوية المتأخرة ، التي تكونت يوم كانت الكنيسة في أوج قوتها ، الى القول بأنه لما كانت السلطة الدينية ، وكذلك السلطة المدنية ، قد مُنحتا للبابا بالحق الالهي ، فإن الامبراطور ومن دونه من الحكام المدنيين طبعاً إنما يدينون بعروشهم للبابا . ولا خلاف في ان النهضة بنوعاتها

الديوية القوية ستتصدر لتحدي هذا الموقف المتطرف ، والدفاع  
عن استقلال الملوك المدني دفاعاً موفقاً .

رجال الربيع بسيدونه استعمال سلطانهم

ولما كان رجال الدين أغنى الطبقات وأجزؤها احتراماً في  
أوروبا - الطبقة الأولى - فقد دفعوا عن هذه القوة شيئاً أكثر  
من التعرض العادي لألوان الاغواء . فطوال العصر الوسيط  
وجهت اليهم اتهامات جديفة بالفساد والانحلال . وكان  
الباباوات والاساقفة يقومون بين الفينة والفينة بالاصلاح ،  
ولكن الفساد ظل رائجاً رغم هذه الجهود الجديرة بالتقدير ،  
فهو لا يكاد ينكمش حتى يُطلع رأسه من جديد . والواقع  
ان الطبيعة الانسانية ضعيفة ، سريعة الى الشر حتى وهي في  
قلنسوة الكاهن وردائه الابيض . ولعل اهم ما كان يؤخذ  
على الأكايروس بيع المناصب الكهنوتية وشراؤها . وقد  
عدت الكنيسة ذلك - بصورة رسمية - إثماً كبيراً ؛ ولكن  
كثيراً من رجال الدين ، حتى الباباوات كانوا في غير نجوة  
من ذلك . وإذا كانت الاسقفيات والابرشيات تدر اموالاً  
ضخمة ، فمن اليسير ان تتمثل كيف كان اولو الطموح من  
الرجال يبتغون الوسيلة اليها ، ولو بضمن من الرشوة باهظ .  
وتهمة ثانية وجهت الى اكايروس الدرجة الاولى هي انهم  
كانوا يحيون حياة تكبر وترف دنيوي تختلف جداً من حياة  
الرسلى الاولين ، واتباع المسيح المتواضعين . فقد خرج كثير

منهم للقنص ، بل خرجوا للحرب ، وعاشوا في قصور بهيجة  
فخمة يغيرها جوف من الفرح والمرح لا ينقضي . اما الكيروس  
الدرجة الثانية فقد رُموا بابتزاز الرسوم الباهظة من اهل  
ابريشياتهم ، في حال الزواج والدفن وغيرها من الخدمات  
الضرورية . وهناك ادلة قاطعة على ان كثيرا من رجال  
الدين ، من مختلف الدرجات ، كانوا متهمين برذائل  
شوانية خطيرة . وقد وُجّهت هذه التهمة الاخيرة بخاصة  
الى الرهبان والاخوة ، ثم ازدادت شدة وحدة باقتراب  
عهد الاصلاح .

نقد العقيدة والنظام يعتبر بدعة

هذه المساوية كانت موضع انتقاد الكهان المستقيمين ،  
اولي العزم ، وفي بعض الاحيان موضع انتقاد نفر من  
اصحاب الرتب العليا في الكنيسة ، طوال العصر الوسيط .  
ولم يفض من قدر الكنيسة ان تعترف علناً بأن بعض رجالها  
لا يستحقون شرف الانتساب الى هذا السلك الرفيع . فقد  
اعتبر سلوك الاكليركيين الشخصي ميدانا للنقد المباح . ولكن  
الحال كانت غير ذلك في حينها من سُرارُ النقد نظام  
الكنيسة او معتقداتها ، لان هذه من صنع الله نفسه ، فهي  
مطبوعة بطابع مقدس لا يمكن تبديله او تعديله . والواقع  
ان هذا النقد اعتبر تجديدياً وسبباً حملت عليه الكنيسة بأسلحة  
حداد . فقد رمت هؤلاء النقاد بعار الهرطقة ، والقت حرمها

عليهم ، طاردهً ايهم من تبعيتها ، ومحظرة على الناس الاتصال بهم ، لتقف بهم عند هذا الحد ، لان تخرجاً قديماً كان يمنعها من اراقة الدماء . ولكن قسيمة الدولة كانت تتقدم ، في مثل هذه الاحوال ، الى القاء القبض على المبتدع ، بوصفه عدواً للشعب ، لتسلبه الحياة ، إحراقاً بالنار عادةً

العصر الوسيط يشهد ظهور عدد من البع الفرديّة والجماعية وعلى الرغم من طرائق القمع التي اصطنعتها الكنيسة فإن الهرطقة لم تكن شيئاً نادراً في العصر الوسيط . بل ان العصر نفسه الذي بلغت فيه الكنيسة مطلق السلطان لم يخلُ من نفوسٍ قوية تؤكد بين الفينة والفينة وجهة نظرها الخاصة . وليس من همنا هنا ان نتكلم على اولئك الهرطقة المتفرقين الذين اطلعوا رؤوسهم في مختلف زوايا اوروبة ، على الرغم من انهم يحتلون مركزاً مرموقاً في تاريخ العصر الفكري . ولكن هناك بالاضافة الى هذا حركات هرطقية تعاون على نشرها الكثيرون ، في بقاع واسعة من اوروبة ، فعرضت وجود الكنيسة لخطرٍ حقيقيّ . من هذه الهرطقات الجماعية نشير بخاصة الى تلك التي ذهبت اليها جماعة الألييجوازيين ، في مطلع القرن الثالث عشر ، والتي شملت معظم فرنسا الجنوبية . فقد ذهب هؤلاء الألييجوازيون الى حدّ الهجوم على نظام الاسرار المقدسة ، حتى اذا ثبت للبابا انوسنت الثالث ان الحرم اعجز من ان يقف نشاطهم ، دعا في سنة

١٢٠٨ الى شن حرب صليبية ضدهم ، ليتزوج انتصاره الذي لم يتم الا بعد نضال مخيف بانشاء محكمة خاصة تدعى ديوان التفتيش . وكان من صلاحية هذا الديوان ان ينظر في آراء المشتبه فيهم ليأخذهم باضال انحراف عن عمود الارثوذكسية . وإذا قد استطاع ديوان التفتيش ان يفرق الالبيجوازيين في بحر من الدماء ، بالمعنى الحقيقي للكلام ، فقد تابع عمله كإداة ناجحة من ادوات القمع الاكليريكي ؛ وهكذا تمتع بشهرة لا يُحسد عليها في الوحشية والمغالاة في التعصب الديني . ومع ذلك ، وبالرغم من الشدة التي اصطنعت في القضاء على ثورة الالبيجوازيين فقد ظهرت حركات احتجاج اخرى من حين الى حين . ففي القرن الرابع عشر اعلن جون ويكلف John Wyclif حركة هرطقية في انكلترة قالت بان الفرد ليس في حاجة الى ايمان وسيط بين ذاته وبين الله ، فلم تتمكن الكنيسة من القضاء عليها الا بعد عشرات من السنين ، لتبدأ بعد قليل حركة مماثلة قام بها جون هس John Hus ضد السيطرة الاكليريكية في بوهيمية . وعلى الرغم من ان هس دفع ثمن جرأته بالموت حرقاً ( سنة ١٤١٥ ) فان البدعة التي تزعمها ظلت تفتل بلاده ، بعد موته ذاك ، اجيالاً متطاولة .

فكرات رفوى جديدة تؤذنه بعصر جديد

هذه الحركات الثورية الجماعية ، وقرائن كثيرة غيرها ، لا تنهض دليلاً على ان الكنيسة خسرت سلطانها القديم غير

المنازع فحسب ، بل على ان الفكرات والقوى الجديدة  
كانت قد بلغت غاية كفيّة بتغيير التراث الوسيط ، والنظرة  
الوسيطّة الى الأشياء ، أيضاً . أما ماهية هذه القوى  
والأحوال التي كانت تدفعها الى المقدمة فذلك ما سنحاول  
بسطه الآن . فلننظر في الطور الجديد ، او الثاني ، من  
اطوار الحضارة الغربية ، أعني ذلك العصر الذي يُعرف عادةً  
بعصر النهضة .

### ٣ . حضارة اوروبه في عصر النهضة

#### النهضة عصر انتقال

رأينا انه ليس من كبير فرق بين ان تُعْتَبَر النهضة طوراً اخيراً من اطوار العصر الوسيط ، أو حقبةً مستقلة تؤذن باقتراب العصر الحديث . وهي على كل حال عصر انتقال زلزلت فيه المظاهر الاجتماعية والسياسية الخاصة بالعصر الوسيط ، والفكرات التي قامت عليها هذه المظاهر ، لتبرز الى النور فكريات جديدة نزعَت الى ان تتجسد في اشكالٍ ومؤسساتٍ جديدة .

ولقد سبقت منا الاشارة الى ان المدن كانت المراكز الطبيعية لقوى الانتقال ، لأن الوان نشاطها الخاصة كانت خليقةً بأن تُثبِت ، في السياق الطويل ، انفصامها عن كل ما هو عزيز على القلب الوسيط . ومهما يكن ، فقد تطورت المدن ببطء خلال عصور طويلة ، فلم تسارع الى اظهار عداوتها الكامنة للعصر الوسيط ، على الرغم من ان في استطاعتنا القول إن طبقة النبلاء ، وقد هُددت في سلطانها السياسي ، استروحت العُدوَّ بالغريزة وفي غير ما إبطاء . والواقع ان

المدن سايرت النزعة الطبيعية للمنظمات الناشئة التي لم يتبلور مستقبلها بعد ، فاضطرت في طورها الأول الى ان تعقد اتفاقات عملية مع السلطات القائمة ابتغاء التوفيق بين مصالحها ومصالح هذه السلطات . وقد نجحت المدن في ذلك الى درجة بعيدة مكنتها من ان تنسجم مع النظام الاقطاعي السائد انجراماً حسناً يسيراً كان من نتائجه قيام توازن غير مألوف بين مختلف القوى والطبقات التي تؤلف المجتمع . وإن الدليل على ذلك لينهض من هذه الحقيقة وهي ان العصر الوسيط لم يبلغ أوجه إلا بعد ظهور المدن ، خلال القرن الثالث عشر . وعلى أي حال ، فاذا كان القرن الثالث عشر يمثل ازدهار العصر الوسيط وبلوغه الذروة فإن انحلال العالم الوسيط ، بسبب من نمو المدن المطرد ، وبسبب من استفحال عدم التوازن اللازم عن ذلك النمو ، اصبح واضحاً ملموساً في القرن الذي تلا ، اعني القرن الرابع عشر . والحق ان التبدلات المتعددة الجنبات التي ما لبثت ان طرأت في كل حقل من حقول الفكر والنشاط الانساني لتؤلف مادة كل دراسة تعنى بعصر النهضة . فلننظر الآن في هذا العصر ، من زوايا ثمان ، ابتغاء فهمه احسن الفهم وايسره .

### « أ » تطور التجارة والصناعة

المدره تنشأ استجابة لاجابات انسانية جديدة  
تأثرت التجارة في اوائل العصر الوسيط بالاحوال السياسية

الاقتصادية السائدة في ظل نظام الاقطاع . وليس من ريب في ان القرون الطويلة من الاستيطان الجرمانى كانت عصراً يعوزه الأمن ، وتعوّزها الطرق ، وتعوّزه اسباب الحياة جميعاً ، حتى في ايسر اشكالها . ذلك ان المجتمع لم يكن ليكفي ، في احسن الأحوال ، غير عددٍ ادى من الحاجات الانسانية ، وكان ايسر وأخشن وأفقر مما نستطيع ان نتخيل . من اجل هذا كان على التجارة ، يوم عاودها النشاط حوالى السنة الألف بعد الميلاد ، ان تسير ببطء وحذر في الطرق التجارية التي كانت تبدو ، في ذلك العالم الذي تسوده فوضى الاجتماع ، اكثر اماناً واسلم عاقبة . ولم تكن تلك الطرق غير الخطوط الساحلية في البحر الابيض المتوسط ، وبحر الشمال ، وبحر البلطيق ، بالإضافة الى مجاري الانهار الكبرى الصالحة للملاحة كنهري الـ « يو » ، والسين ، والرون ، والدانوب ، والراين ، والتايمس . وعلى طول هذه الطرق البحرية والنهرية ابصرت النور اولى المدن الغنية ، وان تكن ظهرت بانتشار الحركة في الداخل انتشاراً تدريجياً مستعمرات قامت حول الجسور وملتقى الطرق ، او استظلت بظل قصرٍ من القصور او ديرٍ من الأديار .

نفوس المدنه الايطالية

لقد رأينا المدن تطمح ، حال ظهورها ، الى الحكم الذاتي ، وتكتسب لنفسها رغم معارضة النبلاء الاقطاعيين

المجاورين قدرًا من الحرية نمته مع الأيام تنمية مطردة . وإنما حققت المدن الإيطالية اعظم نجاح في هذه السبيل لان المعارضة الاقطاعية فيها كانت اخف واطرف . هذا من ناحية . ثم ان هذه المدن تمتعت بفضل بعض العوامل الجغرافية بفرضٍ للثروة والقوة اعظم بكثير من تلك التي كانت لغيرها . وإذا حملت المدن الإيطالية لواء الزعامة على المدن التي زهت في أوروبا لذلك العهد ، فطبيعي ان تكون النهضة ، بوصفها عملية ثقافية ، من إبداع ايطالية في المحل الاول ، لتتبع انوارها بعد من مركزها هذا على امصار أوروبا كلها .

أهمية موقع ايطالية على المتوسط ، وأهمية فربها من المشرق بخاصة ولكي نقيم الدليل على التفوق الايطالي يجدر بنا ان نعتبر مواقع المدن الإيطالية بالنسبة الى العالم الوسيط . ففي أيام الامبراطورية الرومانية كانت ايطالية ، كما هو معروف ، بلداً حافلاً بالمدين الكبيرة الناشطة التي لم يكن يتعين عليها رغم ما صارت اليه من الانحلال المحزن إبان استيلاء القبائل الجرمانية على السلطة ، إلا ان تمّ خيوط ماخيمها لتدرج من جديد على طريق الانبعاث . وكانت عظمتها القديمة راجعة في المحل الاول ، الى وقوعها وسط حوض البحر الابيض المتوسط ، وهو منذ الزمان الاقدم ، احفل بقاع العالم بالسكان وازهاها حضارةً ورقياً . واذا كانت هذه الحال قد تغيرت عهد إحياء المدن حوالي السنة الالف للمسيح

فلتزيد في امتياز شبه الجزيرة القديم . فالى غربها وشمالها قامت ، في اسبانية وفرنسة وانكاثرة ومانانية ، مجتمعات بدائية ولكنها طمحة الى حياة افضل . في حين برزت الى شرقها الدولة البيزنطية التي كانت لا تزال ، برغم انحلالها الواضح ، دولة ذات حضارة عالية ؛ بينما غرقت الدولة العربية ، وكانت في يومٍ بالغة السلطان ، في خضم التناحر الداخلي لتصبح بالاضافة الى ذلك ، وابتداءً من القرن الحادي عشر ، هدف القبائل التركية المتوحشة المنطلقة من الهضاب الآسيوية الوسطى . ولما كان العرب قد اقتبسوا كثيراً من ثقافة الاغريق فقد تمتعوا بمستوى من الحضارة معادل لحضارة جيرانهم البيزنطيين ، وكانوا مثلهم صناعاً ماهرين ، وتجاراً ناشطين وضعوا القواعد لتجارة طموح انتهت الى اقاصي الهند والصين . وفي نطاق الامبراطوريتين البيزنطية والعربية وجدت اسباب الراحة والوان الترف التي فقدت اوروبة المتأخرة الفقيرة مجرد المعرفة بها . فقد لبس السراة الشرقيون حلاً حريرية موشاة بخيوط الذهب والفضة وازينت عقائلهم بعقود اللؤلؤ والجواهر ذوات الالوان . في حين ان دور التيجار المسامين المغامرين في مصر والشام ، وكنائس القسطنطينية وقصورها غصت بضروب السجاد الزاهي والوان الزخارف الفضية والعاجية التي تنم عن مجتمع عريق في التمدن ، وعن ذوق رفيع مهذب . وعلى الرغم من ان جمهرة الناس المتأخرين في عالم المسيحية الغربي كانت تتمثل

الشرق ، على ما اظهرت الحروب الصليبية بجلاء ، ارضاً تفيض بالثروات الاسطورية فالحق ان الايطاليين هم الذين استجابوا لمغريات هذه الارض على وجه الخصوص . ذلك ان شبه الجزيرة الايطالية لم تكن محاذية للامبراطوريتين العربية والبيزنطية فحسب ، بل ان طرفها الجنوبي وجزيرة صقلية كانا لأجيال طويلة ميداناً لحرب العربية البيزنطية افاد منه الايطاليون معرفةً مباشرةً بالسياسة الشرقية وألفةً يفنون الشرق وبضائعه . والواقع ان تلك البلاد كانت في نظر الايطاليين هي ارض الشمس المشرقة ، وكانوا يتطلعون إليها واللهفة والاعجاب يتفرقان في محاجرهم .

#### الاطالون بصومرة وسطاء طبيعيين بين الشرق والغرب

في هذه الحال ، اصبح التجار الايطاليون هم الوسطاء الطبيعيين بين الشرق والغرب . ففي كبريات المدن الساحلية من مثل أمالفي ، وبيزا ، وجنوا ، والبندقية انشأ الافراد المغامرون شركات تجارية وجهت مراكبها شطر الاسكندرية ويافا وعكا والقسطنطينية لتعود محملة بضروب الحرير والجواهر والعقود الذهبية والعاج المنقوش ، وبصورة اخص ، بالأصباغ والتوابل والرقيق من الاسواق المشرقية . وإن في تجارة الرقيق كبضاعة من اكثر البضائع ربحاً ، وازدهارها عصوراً طويلة ، ما يلقي ضوءاً على صفة العصر البدائية الاغتصابية . اما البضائع الشرقية الاخرى فكانت دونما استثناء كماليات

ذات احجام صغيرة ؛ ومن هنا امكن حملها ، بعد ان تبلغ  
السيف الأيطالي ، على ظهور الجياد الى المناطق الداخلية  
من ايطالية ، لتعبر بعدُ شعاب الألب الى فرنسا والمانية .  
ومع الزمان اصبح في مقدور التجار الايطاليين ، وقد  
ازدادت مراكزهم اتساعاً وازداد ملاحظوهم براعةً ، ان  
يحملوا البضائع الشرقية في طريق بحري متصل ، عبر مضيق  
جبل طارق ، الى مدن القناة الانكليزية وبحر الشمال . ولاحق  
ان الايطاليين الحاذقين افادوا ، في السياق البعيد ، من كل  
طريق بريّ او بحري استطاعوا ان يصطنعوه ، فانتشروا  
بقوافلهم في اوروبة ، وجابوا بلدانها بلداً بلداً ، ليعرضوا في  
كلّ منها بضائع الشرق على الاهلين الأجلاف الذين كانوا  
يفغرون افواههم دهشةً وإعجاباً في وجه العجائب المنشورة  
امام اعينهم . إن رغبات لم تقم في وهمهم من قبل طفتت  
تعتلج في صدورهم ، رغبات اضطروا الى ان يقدموا ، في  
سبيل تحقيقها ، نقودهم الذهبية والفضية الساذجة ، وتلك  
الحامات التي كانت تحفل بها بلدان الشمال من مثل الكتان  
والصوف والجلد والفراء . حتى اذا رجعوا بهذا كله الى ايطالية  
وهذبوه بالبراعة الصناعية الايطالية ، حمل من ثم على  
ظهور المراكب العائدة الى المشرق ، لاستكمال دورة  
التبادل الاقتصادي .

التقدم الاجتماعي والقانوني والعقني الذي حققه التجارة  
وما كاد هذا النظام التجاري يُدشن حتى ادى الى

ازدياد حركة الاتصال والتمازج . وفيما كان هذا النظام الجديد  
يحوّل مجاري الحياة الاقتصادية ، عدلّ تدريجياً وجه أوروبا  
الطبيعي نفسه بإقامة جسور فوق الأنهار ، وبإعادة إنشاء  
الطرق الرومانية المهمة ، وشق طرق جديدة أيضاً . وقد  
برز إلى الوجود ، في الوقت نفسه ، قانون دولي مبني على  
التجربة ، من طريق المعاهدات التي أقرت بحق التجار في  
ان يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم في سمي حكام المدن  
او البلاد التي يتفق لهم ان يسبحوا فيها . وليس من شك  
في ان علينا ان نحذر المبالغة في شأن هذا التقدم لأن حالة  
الفوضى الاقطاعية التي لاتعرف القانون كانت اشبه شيء بأفعى  
طويلة العمر ، متعددة الرؤوس . ولكن التقدم يظل حقيقة  
قائمة ، على ما يبدو من سعي التجار ، الذين افادوا من  
من تجاربهم ، سعيًا مطردًا الى تجويد الوسائل التقنية  
technical في مهنتهم . لقد ادركوا اثر التعاون وتعودوه ،  
وأسسوا شركات قائمة على عقود مكتوبة ، واحدثوا مصارف  
تُعِين على التجارة وتشجعها ، وابتدعوا سندات التحويل  
ليسهلوا المعاملات المالية بين البلدان المتباعدة ، وبدلوا غاية  
جهدهم لاستبدان نقد صحيح ثابت بتملك النقود الحقيرة التي  
كانت شائعة في العصر الوسيط ، والتي ما كان يمكنهم  
الاطمئنان اليها .

التجارة همزة الصناعة وكنائهما تنبئ نظام النقابات  
ونتيجة اخرى هامة من نتائج التجارة المزدهرة ، انها

شجعت الفنون الصناعية تشجيعاً قوياً . وإذ تاق الغرب الى كاليات الشرق توقفاً لا يدفع فقد كان حقاً عليه ان يقدم الى الشرق بضائع مماثلة من عنده ، وهي بضائع لا يجوز ان تكون ، بسبب مصاعب النقل وغلائه الى درجة عالية ، من نوع الخامات الأولية . ومن هنا فان منظمات التجار الاولى ، او النقابات التجارية ، كما كانت تدعى ، ما لبثت ان تعاونت مع المنظمات الصناعية او نقابات الصناع من نسجي الصوف والكتان ، وصانعي الاسلحة ، والمشتغلين باجلود ، والفرائين ، وغيرهم ممن كان لنجاحهم المطرد العظيم اثر في تكاثف السكان في المدينة الوسيطة ، وفي ثروتها العامة ومقدرتها على الانتاج . وهكذا اصبحت السيطرة الاقتصادية في كل مدينة بيد النقابات التي حكمت بنوعها الرئيسيين ، نقابات التجار ونقابات الصناع ، العمل الاقتصادي كله فيها . ويجسن ان لا تُغفل الملاحظة ، مع ذلك ، ان النقابة كانت شيئاً اكثر من وحدة اقتصادية ، لانها خدمت اغراضاً دينية واجتماعية ، بل وسياسية ايضاً . والحق ان بعض النقابات ، غير الاقتصادية بالكلية ، اضطلعت باغراض اجتماعية ودينية خالصة ، على طريقة الفرق الاخوية الحديثة ، الى حد ما . وعلى اية حال ، فقد كانت النقابات الاقتصادية اقوى زميلاتاً غير منازعة ، وكانت من هذه القوة في محل ساعدها على ان تتصدر هي ، او عدة من أخرى وحداتها مجتمعة ، للاستيلاء على مقاليد الحكم في المدينة في اكثر الاحوال . والواقع ان عضوية النقابة كانت تنطوي

على معنى القوة السياسية الفردية ممارسةً بطريقة جماعية. ومن هنا غذت هذه النقابات كبرياء مبررة تجلت أقوى ما تجلت في مراكز الاجتماع ، أو قاعات النقابات ، وهذه مضافةً الى مركز البلدية أو قاعة المدينة اتفت المظهر الطبيعي ، الأكثر تعبيراً ، لكل جماعة ناشئة ، فهي تقدم في اتساعها وانسجام اجزائها وجمال تفصيلها مقياساً دقيقاً لاهميتها ومكانتها . وبكلمة موجزة ، ان على الراغب في التعرف جيداً الى حال المدينة في تلك الحقبة ان يفرغ لدرس خليتها العضوية النقابة .

مناطق المدن الكبرى في إيطاليا وفرنسة والهند

ولنقل كلمة اخيرة عن مناطق المدن الكبرى إبان النهضة . وإنما نستطيع ان نفهم ما نحن بسبيله على ضوء احوال التبادل العامة التي قدمنا خطوطها الكبرى . ففي ايطالية سبق النصف الشمالي النصف الجنوبي في تطور الحياة المدنية سبقاً بيئناً ، ، بسبب من قربه من طرق الالب التي تقود الى الاسواق القادرة على امتصاص البضاعة الشرقية . هناك قامت مدينتان احتلتا بين سائر المدن مقام الزعامة ، وهما البندقية وفلورنسة . اما البندقية فانشأت مستعمرات كثيرة زاهرة في شرقي البحر الابيض المتوسط ، لتنتج الى مدى بعيد في اقضاء جميع المدن الايطالية المنافسة عن هذا المسرح وفي ان تصبح هي الموزع الرئيسي للتوابل وغيرها من البضائع الشرقية في طول العالم الغربي وعرضه ؛ في حين

ان فلورنسة التي ارتفعت بصناعة النسيج ، من صوف وحرير ، الى درجة من الرقي لم يسبق الي مثلها من قبل ، نهضت بعبد الزعامة للصناعية والمصرفية في اوروبة . وفي جنوبي فرنسا ، اصبح وادي الرون منطقة للمدن هامة ، ولكنها مدن ما عتبت ان سقطت دون العناية التي بلغتها مجموعة المدن القائمة على نهري المارن والسين في الشمال الفرنسي ، والتي تقدمتها جميعاً مدينة باريس في وقت مبكر . ولقد كانت حركة المدن ما تزال بعد في طفولتها عندما برزت الى الميدان مدن الراين القائمة على طول الطريق بين ستراسبورغ وكولوني ، لتتسع تجارتها وتعرض ، بفضل واد من امرع اودية اوروبة واخصبها ، وموقع ملائم سهيل لها سبيل الاتصال ، عبر الشعاب الالبية ، بالمدن الايطالية . كذلك كان الموقع الجغرافي المسعف اثر بعيد في نهضة مدن الفلاندر التي قامت مقام الثغور من اصقاع الراين البعيدة عن البحر . وكان لهذه المجموعة من المدن ، في قربها من انكثرة ، ميزة جديدة ، لما كان لانكثرة من المكان العالي في العالم الوسيط كمصدر من اعظم مصادر ذلك الحام الثمين : الصوف . واذ كانت هذه المدن تقوم باستيراد هذا الحام فقد نشأت فيها صناعة نسيج تعتبر القسم الشمالي لصناعة فلورنسة الايطالية . اما المدن الانكليزية ، عبر القناة ، فلم تستطع منافسة مدن الفلاندر ، لتظل من هذه الصناعة في محل ادنى ، ازماناً طوالاً . غير ان الموقع التجاري الممتاز الذي تمتعت به

كثير منها ، وبخاصة لندن القائمة على نهر التيمس العريض المنكبين ، ساعدها على ان تصبح مراكز تجارية مزدهرة .

### المدن الاطانية تنظم في المحالفة الالهانية \*

بقي ان نقول كلمة عن منظمة المدن الالهانية الممتدة على سواحل البلطيق وبحر الشمال . فبالأضافة الى استثمار مياهها الحافلة بالاسماك عمل تجارها كوسطاء يحملون منتجات روسيا الوطنية كالجلد والشمع والفراء ، ومنتجات اسكاندينافيا كالحديد والقار ، الى العالم الاوسع . وقد وقفت لوبيك وهامبورغ وبريمن في طليعة مدن هذه المنطقة . ولما كانت هذه المدن تخشى عدوان امراء الاقطاع المجاورين فقد تداعت عدة منها ، ساحلية وغير ساحلية ، الى الانتظام في اتحاد قوي يدعى الـ « هانس » Hansa . وفي القرن الخامس عشر استطاع الـ « هانس » ، وقد بلغ قمة القوة ، ان يبسط سلطانه السياسي والاقتصادي على حوض بحر الشمال ، وعلى حوض بحر البلطيق بصورة اخص ، على طول الطريق من نوفغورود في روسيا الى لندن وبروجز . وعند بروجز في الفلاندر التقى الرافدان العظيمان للتجارة الاوروبية الماخرة عباب البحر الابيض المتوسط ، من ناحية ، وبحر البلطيق من ناحية ثانية ، فجعلنا من هذه المدينة المركز التجاري

\* من كلمة Hansa الالهانية ، وتفيد معنى اتحاد التجار او المدن التجارية . [المغرب]

العالمي الاول حتى قيام مدينة انتنورب ( انفرس )  
وتفوقها عليها في القرن السادس عشر .

## « ب » - إحياء العلوم

فهرات جديدة نبتت على نشوء فكريات جديدة  
كان من آثار انهماك سكان المدن بالتجارة والصناعة  
المتسعين ابدأ ، ورحلتهم الى اقاصي البلاد يتعرفون الى  
اجواء جديدة وشعوب جديدة ، ونضالهم في سبيل السيطرة  
على الفوضى الاجتماعية والسياسية في العهد الاقطاعي ،  
ومحاولتهم اصطناع الحكم الذاتي ، ان اخذ العالم الذي عاشوا  
فيه سبيلاً نحو خلق جديد ، لتقوم من هنا حاجة لم يكن  
للمدنيين معدى عنها قوامها العمل على التوفيق بين موروث  
الافكار وبين الواقع الذي يحيط بهم .

الكنيسة الوسيطة تناري بالتأمل الرومي لهذا اسمى لها  
رأينا من قبل ان اوروبة الوسيطة عاشت حياتها في ظل  
الدين والكنيسة السابع . ولسنا نقول ذلك على سبيل المجاز ،  
لأن جوهر التعليم الديني في ذلك العصر كان يقول بان جسد  
الانسان ، والارض التي هو جزء منها ، مأخوذان بخطيئة  
آدم ، فهما لا يستحقان من المسيحي الصحيح شيئاً غير  
الازدراء . ان الشيء الوحيد ذا القيمة هو الروح . وإذا  
كانت هذه الروح آتية من عند الله ، فسيظل العالم الداني

ذنباً بها حتى تعود الى الاتحاد بخلفها . إن التصور ،  
والأرضين ، والأعياد ، وضروب التبرج والزينة ، كل  
اوتشك وغيره من متاع الدنيا الفارخ المنظور لأحقر من  
غبار الحقول إذا قيس بكنوز الروح المحجوبة . وإذا كان  
هذا حكماً جافاً متطرفاً على تعليم الكنيسة فمن الخير ، مع  
ذلك ، أن ينصّ عليه لفهم الموقف الجوهرى الذى رسمته  
الكنيسة للمؤمنين ، من مشكاة الحياة على هذه الارض .  
إن الانسان لينسجم مع ارادة الله اذا ما اطّرح هذا العالم  
في سبيل العالم الأفضل الذى لا ريب فيه . إن خير امل  
له في الخلاص ان يكون زاهداً في مفاتن الدنيا .

نشاط المرينيين الدينى بتعارضه والاتجاه الاكبرى العام

ولم يمضِ وقت طويل نسبياً حتى شرع سكان المدن  
المنهمكون في النوان من النشاط تبعث في ذاتها على الابتهاج  
والفتنة ، وتهدى الى مكاسب مادية ضخمة ، يتساءلون الى  
اي حد يمكن ان تُطبق عليهم وعلى طبيعة نشاطهم عقيدة  
الكنيسة المثالية الخائصة ؟ لقد سرهم ان يكونوا احياء . لقد  
تمتعوا جهاراً بمفاتن الارض الحسية ذات الالوان ، وابتهجوا  
بما تم لهم من مكانة مالية مرموقة بفضل مواردهم المتعظمة  
في اطراد . واذا كانت الكنيسة مؤسسة مرنة تستجيب أبعد  
الاستجابة للمجتمع الذى تخدم ، فقد تلافت الاصطدام المباشر ،  
على الرغم من اننا لا نستطيع ان نغفل عن ملاحظة حقيقة

واحدة ، وهي ان تطور العقلية المدنية اتجه منذ البدء وجهة  
تعارض والقواعد الاكبركية الاساسية .

### المدرسة الوسيطة ونظام الجامعات

والحق ان الكنيسة المتسامحة لم تعمل على اظهار ذلك  
التعارض الداخلي السري لزعماء الفكر في المدن ، بقدر ما  
عملت تدريجياً واحدة من مؤسساتها الفرعية . ففي القرنين  
الحادي عشر والثاني عشر وسعت الكنيسة نظامها التربوي  
توسيعاً عظيماً بمضاغفة مدارس الاديان والكاتدرائيات ، وبأخذها  
بمنهج يؤكد على ما يدعونه الفنون السبعة الحرة - وهي  
الغراماطيق او النحو ، والبلاغة ، والمنطق ، والحساب ،  
والهندسة ، والفلك ، والموسيقى - ولكنه منصب في الواقع  
انصباباً بعيداً على اللاتينية بوصفها المادة الوحيدة التي لامعدي  
عنها في تربية تستهدف إعداد الاكبركي الصغير لعمله المقبل .  
وفي القرن الثاني عشر آتى هذا النظام اينع ثماره في مؤسسة  
طموح تبدو عليها مخايل الخير ، هي الجامعة . ولم يمض  
طويل زمان حتى شعت انوار الجامعات في بلدان اوروبة  
المتقدمة ، لتكسبها جميعاً جامعة باريس في شهرة اساتذتها  
وعدد طلابها .

المركبة الفكرية الوسيطة تستمر في التوفيق بين الإيمان والعقل

كانت الجامعات تمثل إحياء فكرياً هزيباً - ولكنه

اصيل - قديماً على بعض المخطوطات الفلسفية اليونانية ،  
والارسطوطاليسية بخاصة ، التي سلمت من عواقب الإهمال  
في الصور الأخير من اصور الحضارة القديمة والطور الاول  
من اصور الحضارة الحديثة في اوروبة . وعلى ان الآثر  
الارسطوطاليسية كانت قليلة فقد اعطت صورة حسنة عن  
نتاج العقل الاغريقي الرفيع . كان اساس الفلسفة  
الارسطوطاليسية نظام في المنطق أحكم وضعه المفكر الاثيني  
الشهير كأداة لامتحان الحقيقة . وقد تسلم هذا المنطق ، في  
ساحة من سوانح الاتفاق ، ليطرب باكتشافه من جديد استاذو  
الجامعات الذين اخذوا انفسهم بالتوفيق بين المعتقدات المسيحية  
القائمة في اصولها على الايمان وحده ، وبين قوانين ارسطو  
العقلية . فكان من اثر هذا العمل الذي تحمس له الجامعيون  
فلسفة عرفت بالفلسفة المدرسية نسبة الى انصارها من رجال  
المدارس *doctores scholastici* . وليس من ريب في ان  
زعيم المدرسين ( السكولاستيك ) غير منازع هو القديس  
توما الاكوييني ( توفي ١٢٧٤ ) الذي جاء في اعقاب حركة  
قوية نامية ، فحل في كتابه الشهير الموسوم بالخلاصة  
اللاهوتية *Summa* المسألة الفلسفية في عصره حلا حظي بالقبول  
العام . فقد استطاع القديس توما ان يؤلف في « خلاصته » ما بين  
مقتضيات الايمان والعقل في دقة وفي رفق بحيث احتل كل  
مكانه من غير ان يمس حقوق الآخر بسوء . وبذلك النصر  
بلغت الفلسفة المدرسية غايتها واستنفدت قواها ، ولكنها

بدل ان تقضي نحبها تحاملت على نفسها متخلفة عن القافلة  
تحققاً كثيباً ، شأن الحركات المستظلة بظل مؤسسة قوية ،  
وشرعت توضع تفكيرها العتيق ، فتحفظ سكان المدن النشيطين  
الواعين . لقد راعهم أن يكون التثقيف الذي نهض بعثه  
في المدارس والجامعات ، اصحاب الفلاسفة المدرسية الجامدون ،  
أبعد ما يكون عن حاجات المجتمع المدني ومشكلاته .  
والتمسوا - على الرغم من انهم لم يعوا ذلك ، في الاعم  
الاغلب ، الا وعياً غامضاً - سناداً فكرياً لطرائق حياتهم  
الجديدة ، الراغبة في الدنيا ، حتى اذا اخطأوا هذا السناد  
عند اساتذة الجامعات استقوا من المعين الآخر والوحيد الذي  
كان في متناولهم ، اعني معين القدماء .

### القديس فرنسيس يمثل شعوراً مبريداً نحو الحياة والطبيعة

وكان من آثار ذلك ، تلك الثورة الفكرية الموسومة بحركة  
إحياء العلوم . وبما تجدر ملاحظته انها نشأت ، الى حد  
بعيد على الاقل ، خارج الجامعات بل خدتها ايضاً . انها  
في الحق حركة مدينية لا حركة جامعية ، وخير شاهد  
على ذلك نشوؤها في المدن الايطالية الكبرى ، وفي فلورنسة  
على الخصوص . وقد ظهر روادها اول ما ظهوروا في مطلع  
القرن الثالث عشر ، على ما نرى من ممثل القديس فرنسيس  
الأسيسي St. Francis of Assisi ( ١١٨٢ - ١٢٢٦ ) ، وكان  
ذا نفس لطيفة طاهرة ، وقد نذر حياته - باخلاص ما

بعده - للمسيح ، وأسس فرقة من اعظم فرق الاخوة المتسولين هي فرقة الفرنسيسكان . ومن هذه الناحية لم يخرج القديس فرنسيس على عمود التفكير الزهدي الذي عرفه العصر الوسيط ، غير انه لم يفرض على رجاله العزلة في الاديار ، بل سيرهم في البلاد ليقدموا المعذبين من بني الانسان ، ولم تتولد الرغبة عن الدنيا ، بل وجد في ذات نفسه طرباً مفتان الطبيعة التي لا تحصى ، فهو يفتح لها صدره في مثل بهجة الطفل او الشاعر الساذجة ، داعياً الوحوش اخوته ، والطيور اخواته . فكان لذلك كله يتجه نحو هدف عصري في جوهره ، هو التأكيد على اهمية الكون والحياة .

### بترايك نصير الثقافة الجديدة الاول

كان على النهضة ان تنتظر مائة سنة ، بعد القديس فرنسيس ، ليستطع في سماها نصيرها الاول الذي جاهر بالدعوة الى احياء الدراسات الكلاسيكية ، اعني فرنسيسكو بترايك او بترايك Petrarch ( ١٣٠٤ - ١٣٧٤ ) وكان بترايك ذا نسب فلورنسي ، ولكن ابعاد والده من مدينة آرنو Arno اثر هزيمة سياسية ، قدر له ان يولد في مدينة آرتزو Arezzo في توسكانية العليا ، لينشأ في ما وراء الالب في آفنيون Avignon القائمة على الرون ، وكان البلاط البابوي قد انتقل اليها حديثاً . ثم ان بترايك الصغير قفل راجعاً الى ايطالية ابتغاء دراسة الحقوق في جامعة بولونيا Bologna

الخطوقية الشهيرة ، ولكنه ما لبث ان اصرح تنك المهنة التي لا تتفق وطبيعته ، عازماً في شجاعة بانفة ، على ان يحيا حياة عالم متقلب في البلاد . ولقد عرفته الاجيال المتأخرة ، اكثر ما عرفته ، شاعراً افرغ حبه لـ « لورا » Laura في عشرات من القصائد الغنائية الحافلة بالموسيقى . واذ قد اصطنع اللغة الاهلية اداة للتعبير عن عاطفته الحية ، فقد غدا أحد مؤسسي الادب الايطالي . ومع ذلك فان بتوارك الشاعر لم يكن في نظر رجال عصره ، شيئاً بالنسبة الى بتوارك عملاق الفكر . وكان اظهر ما بدهم منه اعلانه ثورة واعية على اساتذة الجامعة الجامدي التفكير ، واعتزاه ان يطرح غذاهم الثقيفي الذي كان في نظره ضرباً من الهشيم الذي تذرره الرياح ، ليقبل على ذلك الغذاء الغني الذي ما يزال مخزوناً في التراث الكلاسيكي . اما الذي جعل هذا التراث الذي ابدعه القدماء لألف سنة خلت او تزيد ، يبدو حياً ناضراً ما يزال ، في اعين اهل المائة الرابعة عشرة للميلاد ، فحقيقة بسيطة هيئة ، هي ان هذا التراث كان يمثل التعبير الذاتي عن روح شعب ناشط انهمك بمقارعة المشكلات الانسانية الصعبة ، المنبثقة عن الاتصال بهذه الارض . فكان طبيعياً ان يلتقى بروحه الدنيوي الصريح ، والمهذب في وقت معا ، قبولاً حسناً لدى طبقة المدنيين الايطاليين الذين واجهوا نضالاً يماثل ، في الاساس ، نضال القدماء انفسهم .

بتراكم بنصر « لانسانية » التراث الكلاسيكي  
ومن الخير ان نقول ههنا كلمة عن روح انتصار بتراكم  
للتراث الكلاسيكي . فعلى الرغم من ان اللغة اليونانية كانت  
قد نسبت في اوروبة الغربية ، وابتعدت كنوزها التي لا  
تتمن عن تناول الظالمين ، فان احداً من المؤلفين اللاتين  
الكبار لم يحتجب عن العيون احتجاب الاغريق . بان العصر  
الوسيط . ذلك ان اللاتينية لم تجعل ، كما نعرف جيداً ،  
حجر الزاوية في مناهج التدريس الوسيطة فحسب ، بل ان آثار  
المؤلفين اللاتين ، وبخاصة فرجيل ، اصطنعت نصوصاً صالحة  
للتمكن من ذلك اللسان الغريب العسير . بيد ان هذه  
الدراسات التي فرضها نظام « الفنون السبعة الحرة » تحت  
اسمي الغراماطيق والبلاغة لم تكن في احسن الاحوال اكثر  
من تمرينات فيلولوجية ( لغوية ) جافة . واذ كان العصر  
الوسيط في شغل شاغل من دراساته اللاهوتية الفريدة فإنه  
لم يتم بأيام محاولة للنفاذ الى روح المؤلفين الكلاسيكيين  
الذين تقبلوا الحياة على هذه الارض بابتهاج ، وعاشوا  
في عوالم غير مفهومة ، بل وبغیضة الى اصحاب النزعة  
الزهدية الخاصة . ومن هنا لم يعمل بتراكم في سبيل  
احياء الكتب القديمة بقدر ما اجتهد في تنوير عقله بالثقافة  
الحیوية المستودعة فيها لينهض بعد فيبشر بهذه الثقافة جميع  
الباحثين عن الحياة في زمانه . واذا كان بتراكم قد سار  
المنهج الوسيط فأبقى على اللاتينية كأساس للتدريس ، فقد

أكد من الناحية الثانية على ان الجيل الجديد يجب ان يتقن الرسالة الحية التي يحملها النص ، ليهتدي بهديها المنير . وبكلمة موجزة : إن بتوارك لم يرتضِ اللاتينية في سبيل التمكّن من لغة ميتة ، او في سبيل الجدل اللاهوتي الهبائي الذي يدار بواسطتها ، ولكنه ارتضاها وسيلةً يفيدُ منها الطالب روحاً بهيجةً مقبلةً على الحياة . ولما كانت هذه الروح الرفيعة تتمثل افضل ما يكون في لفظ الانساني *Humanitas* فقد اصبح إحياء العلوم مرادفاً « للانسانية » ، واصبح بتوارك يُعرف بالانساني الأول . ليس هذا فحسب بل إنه لما أكد عليه من مفارقتة الحازمة للممثل الوسيطة القاسية التي كانت ما تزال سائدة الى حدّ بعيد في عصره ، قد رفع في شيء من المغالاة الى مقام « الرجل الحديث الأول » .

بتوارك بفتتح عهداً جديداً في الدراسات الكلاسيكية

أما من الناحية العملية الخاصة فقد استهدف بتوارك ، فوق كل شيء ، تحقيق المخطوطات الباقية من فرجيل ، وهوراس ، ولفي *Livy* ، وشيشرون وغيرهم من الشعراء والمؤرخين والفلاسفة اللاتين الذين شوّه عبثُ النساخ طوائف أجيال من الاهمال آثارهم تشويهاً كبيراً . كذلك أعني

# اطلق هذا الاسم على حركة الاحياء لعناية روادها بكل ما يمس الانسان ، في حين عني الشقيف الوسيط بالمباحث الميتافيزيقية الالهية . [ لعرب ]

بأنشاء دورٍ للكتب تجعل المخطوطات النفيسة أقرب إلى متناول  
الدارسين ، وبالتنقيب عن الآثار الفكرية النفيسة الضائعة في  
خزائن الأدباء المعمورة ، التي يعلوها الغبر . وشكى تم له  
تلك الأعمال على وجهها ، جمع بتوارك إليه جمهرة من  
مريديه المتحمسين أفرغت الجهد في استنقاذ الآثار الكلاسيكية  
وتصحيحها وإداعتها في الناس .

استباهة كنوز الثقافة اليونانية وإحياء دهرية النظر الصرايكية  
ومع أن بتوارك كان يجهد اليونانية فقد أدرك شئها  
إدراكاً كاملاً . ولم يمضِ جيلٌ واحدٌ على وفاته حتى دعي  
إلى إيطاليا عددٌ من علماء الشرق البيزنطي الوطنيين لينهضوا  
فيها بأعباء التدريس . وفي النصف الأول من القرن الخامس  
عشر تبع هؤلاء الرواد المتفرقين جماعات تضرروا على البلاد  
مختارين بسبب استيلاء الأتراك العثمانيين شيئاً بعد شيء على  
بلاد الامبراطورية البيزنطية . حتى إذا سقطت القسطنطينية ،  
العاصمة الرومية ، نفسها سنة ١٤٥٣ في وجه الهجوم الآسيوي  
يتم عددٌ أعظم من العلماء شطر إيطاليا حاملين معهم جميع  
المخطوطات التي استطاعوا إنقاذها من ديارهم المغلوبة ، بوصفها  
أنفس ما يملكون على الإطلاق . وبذلك فتحت كنوز  
الثقافة اليونانية ، التي لا تعدُّ كنوز رومة بالنسبة إليهم  
شيئاً مذكوراً ، في وجه الطالب الغربي ، وأصبح من  
اليسير عليه أن يلقى في كل مدينة من مدن إيطاليا الكبرى

جماعة من العلماء « الانسانيين » المنصرفين الى حقول  
الفيولوجيا ( علم اللغة ) والتاريخ والفلسفة الكلاسيكية  
يجنون ثمراتها البانعة في شوقٍ عظيمٍ وعناية بالغة . وإذا لم  
يزدُ بعض هؤلاء عن ان يكونوا مجرد متفهبين تعمي  
أبصارهم غشاوة فهم شبه باخفايش ، يُنفقون أيامهم في  
الاشتغال بصغائر النحو والصرف ، فقد انغمس آخرون  
في دراسة قضايا الحياة الكبرى التي واجهتها أثينا ورومة  
حتى لأصبحوا يأنسون بالحياة في ذلك العصر الدفين أكثر  
من أنسهم بعصرهم الذي فيه يعيشون .

الثقافة الجربية تفتن كبار رجال الكنيسة وتنتشر بين الطبقات جميعاً  
ولم يكد القرن الخامس عشر ينتصف حتى كانت الثقافة  
الفكرية الجديدة ، المبنية على التراث القديم ، قد فتنت  
العالم المثقف كله في إيطاليا . ولم تقتصر الحماسة لدراسة  
الثقافة الجديدة على المدنيين من رجال الحكومة أو التجار  
فحسب ، بل عدتهم الى عددٍ من رجال الكنيسة وأصحاب  
المراتب العليا منهم بخاصة . أما الذين لم يتم لهم ، من بين  
رجال الكنيسة الكبار ، حظ من الدراسة يصبحون معه  
علماء فقد قاموا بدور النصارى والهواة للعلوم والآداب  
والفنون ، ليشاركوا في النقاش حول الفلسفة الرواقية  
والفلسفة الافلاطونية وغيرها من ألوان الفكر اليوناني ، في  
تسامحٍ كثيرٍ ومتعة بالغة . وهكذا أفسحت النزعة

اللاذنيوية التي اتسم بها العصر الوسيط المجال ، شيئاً بعد شيء ، لروح النهضة اللاذنيوية الواضحة ، واتخذ التأكيد البهيج على هذه الحياة سبيلاً الى ضيقات المجتمع كافة .

### انتشار العواطف الوثنية

وسنفضّل الكلام بعداً على هذا المزاج الجذال المميز هذه الحقبة وعلى صداه السعيد في الروائع الفنية . ولكن يجب ان لا نخطيء ، الآن ، النظر في ظاهرة مشؤومة رادفت التحرر العقلي . ذلك ان استغراق « الانسانيين » المتواصل في العالم الوثني كان خليقاً بأن يجعلهم ، في نهاية المطاف ، غرباء عن المسيحية أو يكادون . وليس من شك في ان بترارك كان في نجوة من هذا لما قد عصمته صلته الوثيقة بالعصر الوسيط من أن يفقد الأجلال الصادق لعقيدة الآباء وإيمانهم . ولكن بعد مائة سنة من دراسة شيشرون وسنيكا وافلاطون وافلوطين اخذ هذا الأيمان يبدو أضعف مما كان ، ليكون من نتيجة ذلك أن تصاب جمهرة « الانسانيين » بالشك في الدين . إلا انهم وإن انفصلوا داخلياً عن موروث عقائدهم واصبحوا وثنيين ، قليلاً أو كثيراً ، في استشرافهم للحياة لم يقصدوا الى إثارة الصخب غير المناسب في ما يتعلق بذلك كله . أما الكنيسة ، وفي أعلى مراتبها رجالاً كانوا هم أنفسهم مقبلين على الثقافة الحديثة ، مفارقين لعمود التقاليد ، فقد اظهرت تسامحاً بعيداً

وتجذبت بكثير من الحذر أن تحمل « الانسانيين » على مخاطبتها في وضع النهار .

الخطر على الكنيسة من النزعة الوثنية عند كبار رجال الكنيسة الايطاليين والواقع أن الحالة التي لزمتم عن هذا البعث في إيطاليا كانت تنذر ، من وجهة النظر الدينية الخالصة ، بأعظم الأخطار . لأننا اذا سلمنا بأن الكنيسة كانت في ظل باباوات القرن الخامس عشر الذين أقبلوا صراحةً على مسرات الحياة ومفاتها أشبه ما تكون بقصر فخم لا يقل أهبة وترفاً عن اقصى ما عرفه القدامى ، فطبيعي ان يشك الناس في ما اذا كانت هذه الكنيسة لاتزال هي بيت المسيح الذي تنصدر ، باسمه ، لانتزاع احترام العالم المسيحي ، وخضوعه . واذا جاز أن لا يكون لهذا الوضع الشاذ المتناقض أثر الصدمة الغنيفة في نفوس الايطاليين المستغرقين في حماسهم الوثنية ، فلم يكن من غير الجائز ان يهب شعب آخر ، لم يتأثر بعد بوثنية الثقافة الجديدة ، للاحتجاج على ما تراءى له فضيحةً في الأسرة النصرانية لا يمكن الاغضاء عنها او التسامح بها .

### « ج » - الأدب والفنون الجميلة

النزهة تساعد على نشوء الاداب القومية

ليس عجباً ، بعد ان اتخذ الناس إبان عصر النهضة

موقفاً جديداً من مشكلات الحياة ، أن تبرز الآداب والفنون ، وهي مَنفذٌ لكل ما يحرك القلب الانساني ، الى الميدان في الوقت المناسب . فلننظرُ أولاً في حركة الآداب . ففي ايطالية ، وفي كل بلد من اوروبه ، ظهر ادباء اثرت نفوسهم حتى الاعماق وعشة الحياة المنتعشة بعد ذبول ، فأحسوا ان عندهم شيئاً خديقاً بان ينقلوه الى الناس . ومع ان بعض الكتاب التزموا اصطناع اللاتينية ، وهي حتى ذلك الحين وسيلة الطبقات المثقفة الى الدراسة والتأليف ، فان آخرين ، والشعراء بخاصة ، اقتنعوا بان من العسير عليهم ان يعبروا عن خلجات قلوبهم تعبيراً صحيحاً بغير اللسان القومي المؤلف . وبذلك تمت للغات الاوروبية القومية ، من فرنسية وايطالية واسبانية وانكليزية وألمانية ، مكانة ادبية غير منازعة ، في حين ان آداب هذه اللغات ، وان تكن قد اخذت بالازدهار في العصر الوسيط ، اصلتها بالشعر الملحمي الذي عني به النبلاء ، بلغت من النمو مبلغاً كفل لها الحياة الدائمة . وهنا لا بد من تحفظ . فنحن إذا نظرنا الى هذه اللغات من ذلك الوجه الذي كان لها عصر النهضة لن نخطيء امراً ، وهو ان طابع التجربة كان بيئياً فيها ما يزال . لقد اخذت سبيلها الى البقاء حقاً ، ولكنها لم تكن بعدُ على تمام الثقة من هذه الحقيقة . ومن هنا جاز ان نرى الأدب الايطالي الذي تاه على العالم ، طوال القرن الرابع عشر ، بالثلاثة الفلورنسيين الخالدين ، دانتي وبتراوك

وبوكاتشيو ، يسقط في القرن الخامس عشر عن مكانته ، ويقل خطره نسبياً . وبينما كانت أعمار ايطالية الفلورنسية تتألق في منازلها نجبت انكثرة « تشوسر » Chaucer ( ١٣٤٠ - ١٤٠٠ ) الذي اخرج للناس « حكايات كانتربوري » Canterbury Tales المنهجة ليقتضي ، كالمثلث الايطالي ، دون أن يكون له وريث في امارة الشعر . أما فرنسة فقد نعمت في ذلك العهد بـ « فرواسار » Froissart ( ١٣٣٧ - ١٤١٠ ) أحد كتاب النثر التاريخي الاكثر حيوية وامتناعاً في جميع الاعصار ، واستمعت بعد زمان ليس بطويل الى الاغان الطبيعية النافذة الى قرارات النفوس بوقعها الشاعر « فيتون » Villon ( ١٤٣١ - ١٤٨٤ ) طفلاً المدينة واحياها الوضعية القذرة . وتلك جميعاً أسماء كبيرة ، ولكنها أسماء بوقع نتاجها المتفرق المبعثر ، في نفوس قارئه ، ان الحركة الادبية باللغات الاوروبية القومية ما تزال غضة الجناح لا يكاد ينهض بها ريشها الذي لم يبلغ تمامه بعد .

### الفنونه المحيطة في العصر الوسيط تبرع الطراز القوطي

وهما يكن من امر قآن مزاج النهضة لم يجد تعبسيه الاكمل في الآداب . وانما كان ذلك من نصيب الفنونه الجميلة التي استبدت ايطالية بمقام الزعامة فيها اقوى ما يكون الاستبداد بحيث نجيز لانفسنا ، بسبب من ضيق المقام ، ان نجتزىء ههنا بكلمة في الحركة الفنية عند الايطاليين .

إن الفنون الجميلة جميعاً إنما تقوم بعبء التعبير -- في حدود وسائلها التي تصطنع ، وبدافع من الخيال المبدع - عن آماني مجتمع ما ومثله العليا . وبكلمة ثانية : بينما تخدم العمارة والنحت والتصوير ، دائماً ، اغراضاً خاصة تجتهد في اداؤها افضل الاداء بماذتها المقومة لها من حجارة او خشب او اصباغ ، فالتماثل تكون في بعض الاحيان جميلة ومؤثرة بقدر ما تبلغه من تجسيد لألوان الالهواء وانظامح ، في زمانها ، وفي كل زمان . والحقي ان المدينين ما كادوا يأخذون انفسهم ، منذ القرن الحادي عشر ، ببناء ذلك الشيء الجديد ، المدينة ، حتى اخرجوا فن العمارة الى النور ، ليكون طبيعياً ان ينفخ هذا الفن ، بدوره ، روح الحياة في كل من النحت والتصوير . ولما كان ذلك كماه قد تم والكنيسة ما تزال تتمتع بسلطانها المطلق ، فقد جاءت الفنون الرفيعة ، في طورها الوسيط الخالص ، مسيحية الروح حتى الاعماق . ومؤرخو الفن يطلقون على الفنون الجميلة في العصر الوسيط صفة القوطية Gothic ، ولعلمهم لم يحسنوا اختيار الصفة احساناً كبيراً ( إذ ما علاقة القوط بالفن الوسيط ؟ ) ولكنها تؤدي الغرض احسن الاداء اذا اتفقنا على انها لا تفيد شيئاً اكثر من ان الكنائس والتماثيل والصور الفنية الوسيطة صدرت عن روح خاص ، وانها انقصح عن نغم ديني متماثل . وبكلمة موجزة ، ان «القوطي» لفظ اصطلاحي خالص يرمز به الى طراز العصر الوسيط المسيحي .

طراز النهضة بسورمه ١٤٠٠ - ١٦٠٠ م

حتى اذا بزغ فجر النهضة واخذت المدينة تطرح قيود الكنيسة ، بعد ان وقفت نفسها على الغايات الدنيوية ووصلت ابتغاء ذلك ما كان قد انقطع بينها وبين التمدن القديم ، هجير الطراز القوطي شيئاً بعد شيء ، فقامت على انقاضه طريقة جديدة في التعبير الفني تتفق ومقتضيات العصر الجديد . وليس من شك في ان هذا الطراز ، كسابقه القوطي ، استقرّ خلال اجيال متعاقبة على حال بعينها لم تتغير . واهل الفن يميزون على الاقل بين ثلاثة اطوار مر فيها هذا الطراز : طور النهضة الأول ، وطور النهضة الأوسط ، وطور النهضة المتأخر ، وهي تستغرق جميعاً الفترة الممتدة من حوالي سنة ١٤٠٠ الى ١٥٥٠ بل الى ١٦٠٠ م . وإذ كنا لا نقصد هنا الى أبعد من مجرد الأمام بهذه الحركة الزاهرة فسوف نجتزئ بوصف الفن كما كان في عصر النهضة جملة وبالثنويه ببعض الفنانين العظام الذين برزوا على الاقران في ميادين العمارة والنحت والتصوير .

#### التعريف بطراز النهضة

إذا اتفقنا على ان النزعة القوطية ظلت توجه عمل الفنانين الايطاليين حتى سنة ١٤٠٠ أو ما حولها ، فنحن خليقون بأن نفهم الأحوال التي ساعدت على صياغة الطراز الجديد . وتفصيل ذلك أن هؤلاء الفنانين تطلعوا - بعد سنة ١٤٠٠

بقليل ، وبعد ان نلت « الانسانيون » الانتباه الى يونان ورومة - إلى آثار القدامى الفنية بمثل الشوق الذي سبق ان اظهره العلماء الى تراثهم العلمي والأدبي . بيد أنهم أوردوا هذه الحماسة المضطربة للجديد بازدياد ظالم أكثر ما يكون الظلم للاشكال التي تمتعت بالعلبة والسيادة دهوراً طويلاً . وهكذا أصبح الفن القوطي منكرراً يتحاشاه الفنانون بعد أن نهافتوا ، بجرارة اشبه بتلك التي تنقد في صدر المؤمن المستجد ، على الاعمدة الكورنثية \* وطرائق التوكيد الزخرفية ، وصناعة التماثيل الرخامية التي ابدعها العصر القديم . وفي إيطاليا تقوم الى اليوم آثار معمارية ونحتية لا تزال في حال سليمة الى حد بعيد او قريب . حتى اذا التفتنا بصورة اخص الى المعماريين ، اوائلك الذين ثملت ابصارهم فجاءةً بجبال الخرائب القديمة التي تطاول إهمالها وجددناهم في شغل شاغل من مسألة عملية يحاولون حلها وتتلخص في الكلمات التالية : ما السبيل الى تكييف الاشكال الرئيسية التي عرفها الفن القديم وفق الحاجات القائمة في المجتمع الذي يعيشون فيه ؟ إن المدينة التي ازدهرت عصر النهضة لم تقتض اصحابها ،

---

\* نسبة الى كورنث Corinth وهي مدينة في يونان القديمة عرفت باغراقها في الترف والحلاعة وبطراز اعمدها الذي يعتبر افضل الطرز المعمارية الكلاسيكية بالاشراق والزخرف . ويمتاز هذا الطراز بتيجان اعمدهه الجميلة المزخرفة بأوراق نبات ال acanthus العريضة ، الحادة الرؤوس . ومن اشهر نماذج هذا الطراز هيكل الباشيون في رومة . [ العرب ]

كما اقتضت رومة القديمة اصحابها ، مسارح مدرّجة وحمامات وهاياكل . ولكنها اقتضتهم كاندراثيمات وقاعات بلدية ودور نقابات ، في حين لم تنهض الحقبة القوطية بسدّ الحاجة الى ذلك . وبتعاظم ثروة المدن والمدينين نشأت حاجة جديدة بعض الشيء الى كنائس الابريشيات والكنائس الخصوصية ، وفوق كل شيء ، الى القصور والدارات villas . فاذا أضفنا الى هذا ان الفنانين ، وبخاصة النحاتين والمصورين ، خرجوا على التقليد الوسيط القائل بأن الطبيعة مملكة الشيطان ، ليقرّعوا أبوابها ملتجئين الراحة والدفء في مطارحها العريضة ، تكشف لنا الاحوال التي لا بست مولد الطراز الجديد . وإنما نخلص الآن الى تحديد هذا الطراز من عناصره فننص بأبجاز على انه يمثل بعناً للاشكال الكلاسيكية أولاً ، وانه استلهم نضارة الطبيعة ثانياً ، وانه اخذ نفسه أخيراً بخدمة أغراض الجماعات النشيطة المنصدرة لمحل السلطة عن طريق التجارة والصناعة والتعبير عن نظرتها الجديدة الى الحياة ، وإن لم يتحرر في الوقت نفسه تحرواً كاملاً من الدين والكنيسة .

فن العمارة : برونلسكو وميغال أنجلو

ونبدأ بفن العمارة لنحي في برونلسكو Brunellesco ( ١٣٧٧ - ١٤٤٦ ) رائد روح النهضة . وليس من شك في أن الاثر الأكبر لبرونلسكو ، الذي حقق فيه المبدأ

الكلاسيكي القائل بالجمع ما بين الضخامة والبساطة ، هو القبة التي نوج بها كاتدرائية فلورنسة مستط رأسه . وإن مثل كنيسه سان لورنزا ، في فلورنسة ايضاً ، تتعلن عن عزمه على اطراح قواعد الاعمدة الضخمة المقومة لبناء الكنيسة القوطية ، والاستعاضة عنها بنظام الأعمدة الاكثر لطافة ورشاقة ، الذي اصطنعه المعمار يون الرومان . وقد اتبع طريقة برونلسكو هذه غير جيل من المبدعين ، فعملوا على إحكامها وتجويدها مرصعين أجياد المدن الايطالية بعقود من الصروح الأنيفة المشيدة على طراز النهضة ، والتي لا تزال تثير إعجاب الزائرين . ولعل كنيسه القديس بطرس \* ، في رومة ، تقع من هذه كلها في مكان الطليعة من حيث قيمتها التاريخية والطرابية جميعاً . والواقع أن عدداً من اعظم معماري شبه الجزيرة الايطالية نهضوا ، في اوقات مختلفة ، بعبد إنشاء هذا الأثر خلال القرن السادس عشر كله . ولكن اسم الفنان الفلورنسي ميكال آنجلو Michael Angelo ( ١٤٧٥ - ١٥٦٤ ) هو أبعد هذه الاسماء المتصلة بالمشروع صوتاً وشهرةً . وليس من شك في ان القبة الضاربة في الأجواء حتى لتمكن رؤيتها من مدى بعيد ، والتي فاق ميكال آنجلو بها قبة ابن مدينته ، برونلسكو ، لتساححة إنما تعد مفخرة من مفاخر الفن في جميع العصور .

\* هي كاتدرائية البابا واكبرها كل الدنيا ، وتنبسط على مساحة تبلغ مائتين وأربعين ألفاً من الأقدام المربعة . [ المغرب ]

## نظائر القصور الخاصة والدارات الريفية

ومعها كان ، فإن آثار العصر الفنية الخاصة كانت ، من وجوه عدة ، أكثر إمتاعاً واشد تنوعاً من الصروح الدينية . لقد كان عصرآ تصدر فيه للقيادة جماعة من الطغاة العسكريين وامراء التجارة التواقين الى تحلید ذواتهم وأسرهـم في آثار باقية . ففي فلورنسة ، شيد اصحاب المصارف الناجحون من مثل آل مديتشي Medici وآل سترووتزي Strozzi وآل بيتي Pitti صروحاً ضخمة لم يتأثر طابعها العبوس الأشبه بالقلاع ، على الطريقة الوسيطة ، بركة الاحاسيس الجديدة إلا قليلاً . في حين قامت في البندقية - الثغر الذي حيم فيه الامن الشامل واصبحت فيه فكرة القلعة كبيت تنزله الاسرة غريبة عن روح العصر - دوراً للتجار تزهر بأروقها الطلقة الجميلة ذات الاقواس المتراكبة ، وبرخامها المختلف الالوان الذي تنعكس ظلاله في رفق ولين على المياه المائسة في القنوات . واكنّ وقوف فلورنسة والبندقية في مقدمة المدن الايطالية ، من هذه الناحية ، لا يعني ان رومة ، وبادوا ، وبولونيا Bologna ، وسينا Siena وعشرات غيرها قد تخلفت بعيداً في المضمار . لقد تغير وجهها المعماري ايضاً . وإذا قد تباهات كل من هذه المدن بشخصيتها المميزة فقد جاءت مبانيتها ، لهذا العهد ، نغماً فردياً مستقلاً في سيمفونية فن العمارة الايطالية الغنية الالحان .

## فنه النحت : دوناتلو ومبطل آنجلو

ونحن واجدون في شخص الفلورنسي **دوناتلو Donatello** ( ١٣٨٣ - ١٤٦٦ ) صديق برونلسكو ومعاصره ، الفنان الذي دشّن نتاج النهضة في فن النحت . واذا كانت بعض آثاره العارضة ذات الطابع الديني ، كمثل تمثاله المعروف « القديس جورج » ، تنهص دليلاً على انه ما يزال متأثراً بذكريات العصر الوسيط فإن نتاجه العام ، وان يكن قد حظي بمسحة من روح العصر القديم ، هو تعبير واضح صريح ، عن واقعية مخلصه . وليس من شك في ان دوناتلو كان في الاساس تلميذاً من تلاميذ الطبيعة . اما معاصره جيبرتي Ghiberti ( ١٣٧٨ - ١٤٥٥ ) فهو صاحب بابي دار المعمودية الفلورنسية الشهيرين المصنوعين من البرونز . وهما يمثلان ، في نقوش عديدة بارزة بروزاً عالياً ، بعض الاحداث المهمة المصطفاه من حياة المسيح حيناً ومن « العهد القديم » حيناً آخر . ومن اعظم الفنانين الفلورنسيين في هذا الميدان ايضاً **لوقا دالا روبا Robbia** و **دوزيدريو دا سيتينيانو Settignano** وبجسبنا ان نعلم ان هذه المدرسة الفلورنسية في النحت بلغت ذروتها في شخص **ميكال آنجلو** (١٤٧٥-١٥٦٤) الذي لم يقصّر نفسه على فن واحد ، بل اعني بالعمارة والتصوير والشعر ، وان يكن املك للازميل منه هذه الفنون جميعاً . وميكال آنجلو هو احد العقول المتعددة

البراعات ، والعباقرة العالميين الذين شعت آثارهم في عصر النهضة وكانت من مقوماته المميّزة . والواقع ان ميكال تنكّيب طريقة دوناتلو الطبيعية البسيطة القلب التي اقتنعت ، في سذاجة ، بصور العالم المنظور المباشرة . فأخذ يبحث في إصرار وقسوة عن الحقيقة الكامنة وراء المظاهر . وقد خلق في رائعته « موسى » ( في رومة ) وفي نقوشه على قبور آل مديتشي في فلورنسة ، عالماً من الرجال الكاملين ( السوبرمان ) يكاد يوقع الهول في النفس ويُشعر كلّ جيلٍ من الأحياء الذين عاشوا ، منذ ذلك الحين على ظهر هذا الكوكب ، أنهم مُسخوا الى جنسٍ من الأقرام ..

#### التصوير فن النهضة الممناز

بيد أن النهضة - مهما يكن تراثها في العمارة والنحت قد بلغ من الشأن والرفعة - اصطنعت فنّ التصوير ، بخاصةٍ ، وسيلةً للتعبير عن آمالها ومخاوفها . ولعلّ مردّ ذلك الى أن الأصباغ أسلس قياداً وأفصح تعبيراً من الحجارة أو الرخام ، والى ان روح العصر القلقة قد استشعرت الراحة والآنس ، اكثر ما استشعرتها ، في الآثار المرهفة القلقة التي تحدّثها الخطوط والألوان في نفوس الناظرين . والواقع أن التصوير انتهى الى ان يكون الفن الايطالي المختار الى درجة اخذت معها كل مدينة ذات شأن تنجب مصوريها المحليين الذين ألفوا طبقةً أو مدرسةً ذات طريقةٍ

خاصة بهم مميّزة عن الطرائق الأخرى . وإنما يرجع غنى التصوير الإيطالي وتنوّعه اللذان لا ينفدان الى تلك المدارس التي تضيق هذه الصفحات ، من غير شك ، عن إيّافها حقها من العناية . فلنجتزئ من ذلك كله بكلمة في المدرستين اللتين أطلعتهما فلورنسة والبندقية .

### التصوير الفلورنسي من ماساشيو الى بوتيشيلي

أسس جيوتو Giotto ( ١٢٦٦ - ١٣٣٧ ) المدرسة الفلورنسية في التصوير ، في عهد كانت الاحاسيس القوطية ما تزال أغلب عليه . ومع ان جيوتو معدودٌ ، بحق ، واحداً من أعظم الفنانين في جميع العصور فإن آثاره ذات الروح الوسيط لم تعد تروق للجيل الذي نعيم بآثار برونلسكو ودوناتلو والذي احدث حضارة عصر النهضة . واذن فقد خضع فن التصوير ، منذ اول القرن الخامس عشر ، لتلك الروح نفسها التي دفعت من قبل فنّ العمارة وفنّ النحت نحو تعبير غرضٍ جديد . وكان أسبق المصورين الى سلوك هذه الطريق ماساشيو Masaccio ( ١٤٠١ - ١٤٢٨ ؟ ) وهو واقعيّ عنيف ، على ما تشهد صورته المرقومة على جدران كنيسة برانكاتشي والقائمة حتى اليوم . ثم إن باولو أوتشالو Ucello وفرا فيليبو لي Lippi وبوتيشيلي Boticelli وكثيرين آخرين اخذوا عنه هذا اللون الواقعي ليعدّلوا فيه تعديلاً رفيقاً كل حسب مزاجه الشخصي . وما

يزال أهل الفن يرون في بونيشيلي تعبيراً ذاتياً نادراً أعجز  
الناس فهم مضمينه الصوفية ، منذ كان حتى يومنا هذا .

ميكل آنجلو وليوناردو دافنشي

وآتت المدرسة الفلورنسية أكلها في شخصي ميكل آنجلو

( ١٤٧٥ - ١٥٦٤ ) وليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci

( ١٤٥٢ - ١٥١٩ ) أمّا في ما يتصل بميكل آنجلو فيمكن

القول إنه - برغم اصطناعه التصوير على غير رضا منه -

نزولاً عند أمر البابا الصارم - حقق في صورته التي تمثل

الخليقة والتي رُسمت على سقف كنيسة سستين في رومة ،

رائعةً فنية خفقت لها افئدة كل جيل من أجيال الناس ،

منذ عهده . وكان ليوناردو دافنشي ، كزميله ميكل آنجلو ،

عقبياً جامعاً زاول النحت بالإضافة الى التصوير ، وأولع

بالتجارب العلمية ، وكان مهندساً ومخترعاً في وقتٍ معاً .

وإذا كان ميكل آنجلو نخاتاً قبل كل شيء ، فقد كان

ليوناردو قبل كل شيء ، وفوق كل شيء ، مصوراً . ومن

أسفٍ ان يكون الزمان قد أخنى على بعض آثاره العظمى

من مثل العشاء الأخير في ميلانو ، والمونا ليزا Mona Lisa

في باريس ، حتى لكاد يُتلفها بسببٍ من تعجبه اصطناع

بعض المستحدثات التقنيّة technical على ما يظهر .

الفريسكو والتصوير الزيتي

واعلّ من الخير ان نقول هنا كلمة في الطرائق التقنية

المتصلة بفن التصوير . ففي زمن جيوتو ولعدة اجيال بعده  
آثر الفنانون الفلورنسيون ، على الجملة ، اصطناع ما يُعرف  
بطريقة الفريسكو fresco method ، وهي اسلوب من التصوير  
على الجدران تصويراً ضخماً واسع الجنبات . هنا كانت  
على الفنان أن يستخدم أصباغه في الجص الرطب ، ليتحد  
الجص والصبغ ، بعد جفافها ، في كتلة لا يتطرق اللبس  
الى وحدتها . ولكن الفنانين ما لبثوا ان هجروا فن الفريسكو  
هجراً تدرجياً ، بسبب من قلة ثباته المشبعة ، في الدرجة  
الاولى ، واخذوا بأسباب التصوير على لوحاتٍ او قطع من  
القماش مُعدة خصيصاً لهذا الغرض ، بأصباغ غنية تستمد  
قوتها من امتزاجها بالزيت . وقد تمت الغلبة لهذا الاسلوب  
الفني الفائق الأحكام ، والمعروف بالتصوير الزيتي ، تدرجياً ،  
فاصطنعه ليوناردو ايضاً . إلا انه ، وهو المولع بالاختبار  
العلمي ، جرب وسائل اخرى الى جانب الزيت فكان من  
ذلك ما قدمنا القول فيه من نتيجة فاجعة .

رذابل

ومن متأخري المصورين الذين اصطنعوا الفريسكو ، في  
نجاح باهر ، الفنان رفايل Raphael ( ١٤٨٣ - ١٥٢٠ )  
الذي رفعه ابداعه في تمثيل الموضوعات اللاهوتية والفلسفية  
والشعرية تمثيلاً رمزياً في غرف البابا الحصوصية بقصر الفاتيكان  
بالأضافة الى لوحاته الزيتية العديدة ، الى قمة حركة النهضة .

ليس هذا فحسب ، بل ان ما تم لرفائيل من السمو الروحي والتناغم الصارخ اللذين يأخذان بجماع القلوب ، على امعانها في السهولة واليسر ، قد جعلاه المصور الاحب الى الفؤاد في جميع العصور ايضاً . ويحسن هنا ان لا نغفل عن الملاحظة انه وهو ابن اوربينو ، Urbino ، المدينة الجبلية ، ينتمي الى المدرسة الأمبريانية Umbrian لا المدرسة الفلورنسية . وإن في انزالنا إياه في محل رفيع من هذه العجالة لما يؤكد في أذهاننا هذه الحقيقة ، وهي ان المركزين العظيمين ، فلورنسة والبندقية ، لم يحكرا بأي حال العبقرية الفنية .

النصوب البندقي : تيتيانه

لم تكن مدينة البندقية تنعم ، في ذلك الوقت بالأمن الشامل وبمحكومة مستقرة استقراراً غير مألوف فحسب ، بل انها وقد استوت على بحرٍ فضيٍّ ، وتحت سماء زرقاء نيرة ، كانت وما تزال مغنى من اجمل المغاني وأدعائها الى الفتنة في هذه الارض . وطبيعي ان تنعكس هذه الاحوال الاجتماعية والطبيعية السعيدة في آثارها التصويرية التي نعمت ، وهي المنبثقة من نشاط النهضة الغض ، بحيوية في اللون وبسحرٍ لم يعرف الفن ضربياً لهما من قبلُ ومن بعدُ . ولما كان من العبث ان نستعرض ههنا جريدةً بالنجوم الفينيسية اللامعة ، نوانا مضطرين الى الاكتفاء بذكر الفنانين الذين أشرفوا على الغاية من العمل الفني . واولئك هم جيورجيو

Giorgione و تيتيان Titian ، وتينتوريتو Tintoretto و بول فيرونيز Veronese . ولكن تيتيان (١٤٧٧-١٥٧٦) يزم جميعاً من حيث هو تجسيداً للأغراض الفينيسية الأصلية . ان نتاجه الفني ( سواء أكان صوراً لأشخاص -- وقد اخرج كثيراً من ذلك لما كان من رغبة مشاهير الناس لعهدده في ان يرتحمهم بريشته -- او صوراً لمذابيح الكنائس الزاهية القائمة على ضفاف القنوات ) لم يعد يحمل أثراً من آثار الألفية والتقوى الوسيطتين . خذ مثلاً تلك اللوحة الزاهية في اجمع البندقي والموسومة بتقديم العذراء الى افيكل ، لا تقع فيها على أي عملٍ او إشارة ذات طابع مسيحي خالص بل تجد موكباً من اعيان الرجال يتحرك في جلال ويخطر في حلق نفيسة مترفة لا توحى صورة الاسرة المقدسة بقدر ما توحى صورة امراء التجار الذين في ظلهم انشأ تيتيان ورجال مدرسته فنهم المذهب الارستوقراطي ذا النزعة الدنيوية الصريحة .

## « د » - العلم الطبيعي والاختراع

العلم الوسيط لا يعدو التمجيم والكيمياء القديمة

ليس عجباً ان نهمل العلوم الطبيعية في العصر الوسيط ، وهو الذي نظر الى هذه الارض نظرة احتقار بوصفها وادياً للدموع ، وعلاهم ان أسعد ساعات العمر هي تلك التي يغادر فيها المرء دنيا التراب هذه . وكان العوام يؤمنون

بان الطبيعة مسكونة " بارواح و غفاريت و شياطين من الحكمة استرخاؤها واستعطافها ، بل ان الطبقات العليا نفسها كانت في الاعم الاغلب أسيرة حرافات مشابهة . وليس من المعقول في مثل هذه الاحوال ان ينشأ ايما درس عاقل او نظامي لبيئة الانسان الطبيعية . ومن هنا تمثلت اقرب المحاولات الى البحث العلمي - بالمعنى الذي نفهمه اليوم من هذا التعبير - في العلمين الدجليليين التنجيم والكيمياء القديمة alchemy . أما التنجيم الذي اقترن في الواقع بشيء من النظر في السماء وملاحظة افلاكها فمدن بشعبيته المذهلة الى الاعتقاد الخادع بان مقدرات الانسان اذا تقررها النجوم ؛ في حين أن اصحاب الكيمياء القديمة التي شجعت دون ريب قدراً ضئيلاً من التجريب العلمي كان يحدوهم أمل حائلب في ان يحققوا ثروات اسطورية من طريق تحويل المعادن الدنيا الى ذهب . ونحن مع اعترافنا بان التنجيم والكيمياء القديمة كانا رائدين لعلمي الفلك والكيمياء الحقيقيين لا نستطيع بسبب من الفرضيات غير المعقولة التي قاما عليها ، وبسبب من عدم وجود طريقة نقدية تقويمها ان نقول بانها ساهماً كثيراً في تعريفنا بالانسان وبالعالم الذي يعيش فيه تعريفاً دقيقاً مفيداً .

التقدم البطني في الامم منظمة العلمية : الطب

وباستهلال عصر النهضة ، اخذ الموقف السلي من الحياة

الذي روجت له المسيحية الوسيطة ينكص على عقبيه في وجه إيجابية سعيدة قادت بصورة لا شعورية الى ملاحظة اكثر دقة مظهر الطبيعة وطرائقها في العمل . وقد ساعد المؤثر الفكري الذي انطوت عليه النزعة « الانسانية » على بلوغ الغاية نفسها لأن انبعث الثقافة الكلاسيكية رافقه انبعث العلم الاغريقي ، وبخاصة في حقول الفيزياء والفلك والطب والرياضيات . فكان من اثر ذلك أن اخذت روح علمية جديدة تسود ببطء كثير ، في بعض الجامعات ، وفي بادوا Padua خصوصاً . ولكنها لم تستطع ان تنعم بانتصارات ذات شأن إلا في مطلع القرن السادس عشر ، وان تكن هذه الانتصارات قد اقتصرت على ميدان الطب حقبة طويلة من الزمان . فقد كان تقدماً فيما ان تشاء دراسات كعلم التشريح وعلم الفيسيولوجيا على قواعد تجريبية واضحة من طريق أعمال الموضع في الاجساد الميتة . اما اعظم اطباء بادوا فعالم فلينكي \* الاصل هو الدكتور فيزاليوس Vesalins . ففي سنة ١٥٤٣ نشر هذا الطبيب رسالة في التشريح دعاها *Fabrica Corporis Humani* تصدر فيها لمقالة جريئة قوامها ان من الضروري أن نخضع للنقد كل مصدر قديم ، حتى الاغريق الذين يوحون أعماق الاعجاب والاحترام ، ليكون رائدنا اختبار الحقائق ، لا رائد غيره .

\* اي بلجيكي ، من اهل الفلاندر بخاصة ، يتكلم اللغة الفلمنكية .

[المغرب]

## التقدم الحديث في فنل الجغرافية

والكن لما كان الطب لم يتخذ على اية حال وجهةً جديدة متميزة إلا حوالى عام ١٥٠٠ فلا لوم علينا في ان نضع علمي الجغرافية والفلك المتصل احدهما بالآخر في مقدمة الدراسات التي آتت قبل غيرها ثمرات جديدة . والحق ان التحجر العلمي الوسيط انما زُرع أول ما زُرع بفضل ظهور المعرفة الجغرافية الجديدة التي نشأت ، في بساطة بالغة كحصول ثمانية by-product للرحلات التي قام بها التجار في البر والبحر ابتغاء البحث عن اسواقٍ لبضائعهم . ومنذ ان اصبحت رقعة البحر المتوسط مألوقة الى حد لا بأس به اخذ الناس بأسباب السفر والرحلة بدافع المغامرة حيناً ، واستجابةً لشهوة الربح حيناً . فمنذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر قام الرحالة البندقي الشهير ماركو بولو \* Marco Polo برحلة برية الى الصين ليدون لنا مغامراته في كتابٍ ما يزال يُذكي خيال القراء الى اليوم . ولم يمض وقت طويل حتى تجسدت المعارف الجديدة المتفرقة في مصورات وضعها راسمون اخذوا انفسهم بأرواء ظمأ الأنسان المتعظم الى المعرفة بقدر ما اعتبروا حاجات التجار ورؤساء الملاحين العملية . ثم إن جغرافية الأغر يق القدماء و فلكنم انتهيا ، باشتداد حركة الأحياء ، الى ان يُصبحا

[المغرب]

\* ١٢٥٤ - ١٣٢٣

في متناول الباحثين ، في القرن الخامس عشر . وكان آخر الفلكيين الاسكندرانيين العظيم هو بطليموس Ptolemy الذي عاش في القرن الثاني للمسيح والذي لم ينص على كروية الأرض فحسب ، بل حسب محيطها حساباً يقارب الرقم الحقيقي مقاربةً تبعث على الدهشة . وإذا كان « الانسانيون » في شوق الى التقاط كل ما على المائدة الاغريقية من فئات ، فإنهم لم يتباطأوا في اطراح المعتقد الوسيط الشائع الذي يذهب الى ان الارض منبسطة ، ليأخذوا بالنظرية البطليموسية الاكثر وثوقاً . وإذا فقد تبدل وجه الجغرافية العالمية في القرن الخامس عشر : فالى المعلومات الجديدة الغزيرة التي تتصل بأوروبا وإفريقية وآسية ، أضيفت حسنات أخرى تتمثل في مصورات أصح وأخرط ملاحية أوفى ، وفي الفرضية البطليموسية ومضامينها التي تثير الفكرة في الرؤوس . فإذا أردفنا هذا كله بالإشارة الى المكاسب المغربية التي لوحت بها التجارة الشرقية للناس استطعنا ان نفهم كيف أصيب الانسان بحمى الاستكشاف الغربية التي أذكتها أقاصيص المخاطرة ، وحب المعرفة ، والجشع الدنيء ، والتي لم تنطفيء جذوتها إلا بعد أن نشر الانسان لواءه في أقطار الارض جميعاً .

علم الفلك الجديد : كوبرنيكوس

ولسوف تكون لنا ، في الصفحات التوالي ، عودة الى

رحلات الاستكشاف توسع فيها الكلام عليها . اما هنا فيجدر بنا ان نشير الى ان الجغرافية الجديدة قادت بصورة منطقية الى علم الفلك الجديد المتصل باسم كوبرنيكوس Copernicus الشهير ( ١٤٧٣ - ١٥٤٣ ) . وقد وُلِدَ كوبرنيكوس هذا في مدينة ثورن Thorn على نهر الفيستولا ، وقضى عشرًا من سنه الرخصة في إيطاليا حيث تلقف ، في حماسة وشوق ، الافكار الجديدة التي كانت شائعة في شبه الجزيرة شيوخاً بعيداً . وهو وإن يكن قد أعجب بفلك بطليموس الذي يُقيم في وسط الكون أرضاً كروية ساكنة تدور حولها الاجرام السماوية جميعاً فقد داخله الشك في بعض نظرياته المقررة تقريراً يعلو على المناقشة ، فوضع بعد سنوات من الدروس فرضيته الخاصة القائلة بأن الارض والسيارات الاخرى إنما تدور حول الشمس ، وان للارض بالاضافة الى هذه الحركة دورة كل اربع وعشرين ساعة ، حول محورها .

### فلك كوبرنيكوس بحرك راكر العالم

وبسبب من ذبوع النظرية البطليموسية التي تقول بمر كزية الارض والتي اخذت بها الكنيسة فمكنت لهذا الذبوع عملياً وفرضته على الناس ، تردد كوبرنيكوس طويلاً قبل أن يُعلن ما ذهب اليه من ان الشمس هي المركز الذي تدور حوله السيارات . وهو ما يفسر لنا كيف جاز ان لا تطبع رسالته الفلكية العظيمة إلا في العام الذي توفي فيه ( ١٥٤٣ )

بيد ان هذه الرسالة لم تسترّع النظر بايدي الرأي ، فكان من اثر ذلك ان مادتها لم تأخذ سبيلها الى الوعي الاوروي إلا في بضع كثير . واياً ما كان فان هذه الفرضية الجديدة ما لبثت ان غزت العقول المفكرة فلم تقلب الصورة العامة للكون رأساً على عقب فحسب ، بل ساعدت بشكل حاسم على إقامة العلوم الطبيعية على قواعد مكيئة بما قد نشرت من اعتقادٍ يذهب الى ان المعرفة الحديثة ينبغي ان تبدأ - على عكس المعرفة الوسيطة - بتحدي التقليد ، والتقدم من ذلك الى دراسة النتائج الجديدة التي تنزم عن الملاحظة الشخصية .

### العصر الوسيط ليس عاطلاً من الاختراع

واذا كان العصر الوسيط قد أهمل العلم الطبيعي إهمالاً واضحاً فليس معنى ذلك أنه لم يعرف نشاطاً ما في حقل الاختراع . والواقع ان الاختراع يُذكيه الاكتشاف العلمي إذكاءً شديداً ، على ما يشهد عصرنا بوضوح ، ولكنه لا يعتمد عليه كل الاعتماد . فنحن نعرف ان بعض المخترعات التي لم يحقق الانسان في جميع العصور ما يدانيها شأناً وقدراً إنما انبثقت عن حذقه الفطري ليس غير . وحتى في العصر الوسيط المتبدد نسبياً ، نجد الناس لا يكادون يواجهون في ميدان مصالهم المباشرة مشكلاتٍ عسيرةً مقلقة حتى يحلوها أو يحاولوا أن يحلوها حلاً مرضياً . وهكذا كان لما أذكاه

القداس الكنسي من حبّ لهوسيقى أثره في المغنين ، فاخترعوا  
سليماً موسيقياً كان لنا منه ، بعد أن جود في مراحل  
من التطور ، السّم الذي لا يزال نستعمله الى اليوم .  
و حين وجدنا ملاحو البحر المتوسط أن من العسير عليهم  
ان يتابعوا السير بمجرد اختفاء السبّ عن أعينهم اخترعوا  
الابرة المغناطيسية أو اقتبسوها عن العرب الذين استعاروها  
بدورهم من الصينيين . اما مصورو العصر الوسيط فقد حلوا  
مصاعبهم أول الأمر بطريقة الفريسكو ، كما رأينا ، حتى اذا  
أثبتت هذه الطريقة عدم كفايتها فزغوا الى الزيت والقماش .

البارود يقضي على الميزة العسكرية التي كانه النبوءة يشهدها بها  
وعندما تضاعفت المشكلات ذات الصبغة التثقينية  
في عصر النهضة تضاعفت كذلك المخترعات التي  
تمثل حلولاً تختلف كلاً ونقصاً هذه المشكلات . من هذه  
المخترعات اثنان كان لهما آثار بعيدة المدى تبرر الوقوف  
عندهما . ففي سياق النصف الثاني من القرن الرابع عشر  
اصطنع البارود ، لأول مرة ، فأحدث بصورة تدريجية  
بطيئة انقلاباً في أساليب القتال الأوروبية ، لما قد قاد اليه  
من اختراع المدفع والبندقية القديمة اللذين قدّرهما ، وإن  
كانا أول الأمر على غاية من البدائية في التركيب ، أن  
ينسخا الأسلحة العتيقة بلا ترفق ولا استبقاء . وعلى أثر  
هذا التجويد التقني على اختلاف ضروبه أعلنت بعض

التغيرات ، في غير ما يبطء ، عن نفسها . وتفصيل ذلك أن سلطان الأمير الإقطاعي كان يقوم ، الى حد بعيد ، على امتلاكه دون غيره من الناس لعدة باعظة الثمن تتألف من جواد ورمح ودرع . ولما كانت الاسلحة الجديدة - بالرغم من انها ظلت فترة طويلة على حال من النقص الفني يكاد يثير السخرية - ابعداً أثراً ، من حيث صناعة القتل ، من السنان والسيف فقد رجحت كفة أعداء النبلاء العسكريين اعني القوات المرتزقة الوضيعة النسب التي استطعت به قد جهزها به الملك على نفقته من عتاد ، وبما قد اصضعت من طرائق في القتال تتفق والسلاح الجديد ، أن تحبط كل هجوم يقوم به النبلاء ، وان تقتحم من ناحية ثانية اسوار القصر الإقطاعي التي كانت حتى ذلك الحين حصينة لا تؤخذ . والواقع ان الملكية القوية التي سنفصل الكلام عليها بعد انما نهضت في مطلع القرن الخامس عشر ؛ وهي مدينة في ما وُفقت اليه من إزعاج النظام الأقطاعي عن مكانته والقضاء عليه ، لنمو المدن الذي درسنا . ولكن ليس ثمة مجال للشك في ان الثورة التي طرأت على الأساليب الحربية بعد اصطناع البارود والاسلحة الحديثة قد عجلت في الخطايط النظام الأقطاعي تعجيلاً كبيراً .

الطباعة تطوّر على سلسله من المخترعات

هذا عن البارود ومتعلقاته . ولكن الاختراع الثاني

كان اعظم شأناً ، وكان دوننا ريب واحداً من المخترعات الأبعد اثراً في تاريخ النوع البشري ، اعني الطباعة . فما دامت الكتب تُنحط باليد ، في مشقة وعُسْر ، فقد لزم بالضرورة ان تكون نادرةً غالية الأثمان ، وان تكون امتيازاً للملوك والأمراء من مدنيين وإكليركين . وبنمو المدن اصبحت الحاجة ماسةً الى طريقة في إذاعة الأفكار تكون اكثر يسراً واقل نفقةً ؛ وقد سُدت هذه الحاجة ، كما جرت العادة ، بسلسلةٍ كاملة من المخترعات آخذ بعضها برقاب بعض لا بمُخْتَرَعٍ مفرد . وإن الموقف ليتضح اتضحاً حسناً اذا ذكرنا ان النساخ في العصر الوسيط كتبوا اكثر ما كتبوا على الرِّقّ المعد من جلود الحيوانات ، وجلود الأغنام على وجه التفضيل . وكانت الاستعاضة عن الرِّقّ المكتوب الكثير النفقة بغيره مما يسدّ مسدّه تفتضي سلسلةً من اعمال طويلة اهمها اختراع الورق و حرف الطباعة المنفصل . فحوالي منتصف القرن الخامس عشر اصطنع الورقُ الكتاني الممتاز المعد من ألياف القنب عوضاً عن الرقّ . وما هي إلا فترة قصيرة حتى خرج من المطبعة ، سنة ١٤٥٤ ، اول كتاب مطبوع بالحرف المنفصل . وليس من مجرد الاتفاق ان يكون أول ما ابدعته الآلة الجديدة الموفرة للعمل ، في عصرٍ ما يزال الطابع الأكليركي أغلب عليه ، نسخةً مترجمةً \* من الكتاب المقدس . ويميل المرء

[ المغرب ]

\* الى اللغة اللاتينية .

الى الاعتقاد ، بعد ان يؤن الحقائق كلها أن هذه النسخة من الكتاب المقدس لم تكن عمل طابعها المباشر وحده ، وإنما كانت شيئاً أكثر من ذلك . كانت ثمرة جهود متشابكة بذلتها ثلاثة من الرجال الذين نجهل اسماءهم والذين نهض كل منهم بقسط معين من تلك المهمة الكبيرة . وإذا كان هؤلاء الرجال يقضون ، على ما يظهر ، المدن المزدهرة القائمة على مجرى الراين ففي استطاعتنا ان نعتبر الطباعة ، بحق ، هدية إجماعية قدمتها مدن الراين الى النوع البشري . اما الاختراع الذي توج هذه الجهود كلها ، اختراع 'حرف الطباعة المنفصل' ، فيُعزى عادة الى جون غوتنبرغ \* John Gutenberg من أبناء مدينة مينز Mainz .

### الثورة العارمة التي احدثتها الطباعة

وفي بضع عشرة سنة انتشرت الطباعة من الراين الى بلاد اوروبه جميعاً . وتضاعف عدد الكتب ، وكانت من قبل شيئاً نادراً عزيزاً ، بمثل فعل السحر ، وبيعت بثمان نجس ، حاملة المعارف القديمة والجديدة الى دنيا الناس . فكان من اثر ذلك ان اصبح العلم ، علم المدارس التياه المحاط بالحواجز والسدود ، أقرب الى المتناول العام . ليس هذا فحسب ، بل لقد سخرت الطباعة لكل مجدد او مصلح أداة فعالة يستعين بها على اذاعة برنامجه في العالمين . ومع

[المعرب]

\* ( ١٣٩٧؟ - ١٤٦٨ )

ان من الخطأ ان نتصور جمهور الناس في ذلك الحين وقد  
أولعوا بالمطالعة وعملوا على رفع انفسهم ، في غير ما خبجة  
او جلبة ، الى مستوى من الفهم جديد ، فان من المحقق  
ان افراد الطبقات الوسطى ، حملة مشعل النهضة الحقيقيين ،  
حرصوا أشد الحرص على الاحتفاظ بالنصر الذي تم فتحهم من  
قبل . والواقع ان الطباعة ساعدت على تقدم هذه الطبقات  
الى محل السلطة بأكثر مما ساعد اختراع البارود نفسه . ومن  
الادلة الواضحة على نهوض الطبقات الشعبية أنه لم تكدمضي  
بضع عشرة سنة حتى بلغ عدد الكتب المنشورة بمختلف  
اللغات القومية الأوروبية أضعاف أضعاف الكتب المطبوعة  
باللاتينية ، لغة الفكر عند نفر محدود من العلماء . وليس  
هذا بعجيب ؛ فقد تعين على الكاتب الذي يطمع في اقبال  
الناس على قراءة مؤلفاته ، ان يذيع افكاره بلغة المنزل  
والشارع . ولكن اذا كان الاختراع الجديد قد ساعد اللغات  
العامة على احراز النصر النهائي على اللاتينية ، فإنه جنح  
كذلك الى القضاء على اللهجات الكلامية المختلفة ، في كل  
بلد أوروبي ، ليحل محلها اصولاً وقواعد لغوية ثابتة اعتمدت  
واجبة الاتباع في الاغراض الادبية . وبكلمة اخرى : ان  
اللغات الايطالية والفرنسية والاسبانية والالمانية والانكليزية  
انما اصطنعت لبوسها الحديث ، في القرن السادس عشر ،  
باننتشار الكتب المطبوعة انتشاراً عريضاً .

### نظام الطبقات الصارم في العصر المترسط

من العسير على الرجل المحدث ان يدرك الى اي مدى كان العصر الوسيط عهد طبقات وانضباط طبقي . كانت المرء يجيا حياته ، فارساً كان او تجراً او صانعاً او فلاحاً ، بروح الولاء الطبقي والضعفة العمياء لما رسخ في مجتمعه من عادات ، وتوطد من تقاليد . كان يلتمس العدل اذا ما اوذي في حقوقه ، لدى القضاء الذي يعنى بمصالح طبقته الاجتماعية . ومعنى ذلك انه كان هناك قضاء للنبله ، وقضاء لرجال الدين ، وقضاء للمدنيين ، وقضاء للفلاحين . صحيح أن قضاء الملك كان فوق اي قضاء مدني آخر ، ولكنه لم يكن يعمل دائماً ، بسبب من ضعف الملك او فقده لسلطته في كثير من الاحيان . وكان لكل طبقة ليهبتها الخاص ، وفنها الخاص ، وادبها الخاص ، بل وتسلياتها وآداب طعامها الخاصة . وعلى الجملة ، فقد كان نظام الطبقات قاسياً عاتياً الى درجة امسى معها الفرد خاضعاً ، في كل مهم من امر الحياة ، لمجموعة ضخمة من المتواضعات الصارمة باكثر مما يجب ، والمتمتعة مع - الايام - بقوة القانون .

المذهب الفردي ينبج كوكبة من التخصيات المره:

حتى اذا كانت النهضة اخذت حواجز العادة الغليظة في

التخلص ، بفعل القوى التي درسنا الى الآن ، ثم شجع  
الناس على أن يخففوا من غلواء ولائهم للمجموع ، ليتعلقوا  
بالمثل الأعلى الجديد القائل بالحرية الشخصية . فقد تضايق  
التاجر الكبير ، في البندقية أو فلورنسة ، من القيود المتعددة  
التي فرضها زملاؤه في نقابة التجار ، في كل ما يتعلق بالبيع  
والشراء ، وداخله الاعتقاد بأنه خليق إذا ما أطلقت يده  
من عقابها بأن يوتقي 'سلم النجاح الذهبي بأسرع كثيراً مما  
يفعل الآن . وبمثل هذه الافكار التي اخذت تغلي في رأسه ،  
انتصر تاجر النهضة لسياسة اقتصادية تقول بالعمل المطلق  
غير المقيد ، شأن معاصره « الانساني » الذي قاده 'غرامه  
بالتراث الكلاسيكي وأخذته 'برنامج في التثقيف جديد ،  
الى ان يتوق الى الانعتاق من القيود الفكرية والاخلاقية  
التي فرضتها الكنيسة والجامعة . والواقع انك كلما اقتربت  
اقتراباً كافياً من احد ميادين النهضة لترى ما الذي يجري  
فيه فعلاً تجلى لك ان القادة المقدمين في ذلك الميدان الذي  
تدرس آخذون في تحرير أنفسهم من أصفاد الماضي ، ليستهدفوا  
تعبيراً ذاتياً أوفى وأكمل . وباللغة الفلسفية ، نستطيع ان  
نقول إن النهضة هي عصر 'انبثقت فيه نزعة 'فردية' روحها  
الحرية . الحرية - ما أخلبها من دعوة وما أشد إغواءها !  
لقد دوت أصواتها طوال القرون المتعاقبة وما تزال ، حتى  
يومنا هذا ، تدوي بسحرها القديم كله . وليس من ريب في

أن الرغبة في تحقيق أقصى قدرٍ ممكن من التعبير الذاتي الحر هي المسؤولة ، في الدرجة الأولى ، عن ظهور هذه الجمهرة الضخمة من العبقريات التي لمعت في سماء القرنين الخامس عشر والسادس عشر والتي قد تكون أكثر إشراقاً وأوضح معالم من أي جمهرة من كبار الرجال حفلت بها أيما حقبة أخرى من حقب التاريخ .

### النزعة الفردية تغزو نظاماً أهموقياً خاصاً

وإذا كانت النزعة الفردية ، بما تقتضيه من حق لكل امرئ في أن يسعى إلى نأته الأكمل ، قد صارت إلى مقام الطليعة في هذا الوقت لتظل عنصراً روحياً مميّزاً للعصر الوسيط كله ، فقد حملت معها بعض النتائج الاخلاقية التي لا يمكن إغفالها . ذلك أن نظام الطبقات الوسيط بسلطانه الدقيق الصارم ، قد علم الناس ان يلتمسوا سعادتهم في خدمة المجموع ، وفي العمل على كبح جماح الذات وكتبها ، أما النهضة فجنحت ، بذهابها الفردي ، إلى إغفال المجموع وتضحيتها لمصلحة أعضائه الأكثر نشاطاً والأعلى كفاءةً ، وإلى وضع مقياس حظي بفضله الموهوبون والناجحون ، دونما اعتبار للضرائق التي يصطنعونها ، بالتشريف العام . وهكذا تلاقى نوعان من السلوك ، أو باللغة الفلسفية ، نظامان في الاخلاق وجهاً لوجه . وإذا كان السلوك الوثني الفردي قد ارتفع إلى المكان العالي ، غير مدافع ، في عصر النهضة فإن

سلوك العصر الوسيط ، أو ما نستطيع ان ندعوه السلوك المسيحي الاشتراكي ، لم يخرج بأي حال إخراجاً تاماً من المسرح . والحق ان من السهل ان نرى هذين النوعين يعيشان جنباً الى جنب ، في تناقض صريح ، اكثر الأحيان ، حتى جيلنا الحاضر . وما زاد الموقف تعقيداً ان الانسان الحديث ، بوصفه الوارث التاريخي لنظامين اخلاقيين ، كثيراً ما يحاول الجمع بينهما في شخصه المفرد ، لتكون النتيجة في معظم الأحوال اشبه شيء باجتماع النار والماء .

#### عناصر النزعة الفردية الرئسية:

واخيراً فالتنا مع اعتبارنا الكامل لاختلاف الحال من بلد الى بلد ، ومن طبقة الى طبقة ، لا تزال مضطرين الى الافرار بأن عصر النهضة قد اعلن دستوراً اخلاقياً جديداً يقوم في عناصره الرئيسية على توكيد قوي للفردية ، وإعلان اللاعتناق من الأغلال الموروثة ، وتطبيق مذهب اخلاقي وتجمالي يتناغم والموقف التحرري الجديد من مشكلة العيش .

#### « و » - وحلات الاستكشاف والاستعمار الاوروي

رحلات الاستكشاف ليست مجرداً مستقلاً

لقد اكدنا من قبل تفاعل قوي النهضة المطرد ، هذه القوى التي عزلنا بعضها عن بعض عزلاً اصناعياً في هذا

الفصل تسهيلاً للبحث . وها نحن نعاود هنا هذا التأكيد  
بمناسبة كلامنا على الرحلات الاستكشافية . وهل يمكن  
لرحلات الاستكشاف هذه ان تفصل منطقياً ، عن اتساع  
المدن التجاري الذي درسنا سابقاً ؟ لا ، من غير شك ،  
ما دامت هذه الرحلات ، وقد وقعت إثر ذلك الاتساع  
مباشرة ، هي في الدرجة الاولى حركة تجارية . هذا من  
ناحية . ومن ناحية ثانية ، هل ترتبط هذه الرحلات ارتباطاً  
وثيقاً بحركة احياء العلوم ؟ بلى ، من غير شك ، ما دام  
العلم الجديد هو الذي بعث الجغرافية البطليموسية وعمم  
الفكرة القائلة بكروية الارض . وليس من ريب ايضاً في  
ان حركات الكشف مدينةٌ كثيراً للشهوة الجديدة الى التعبير  
الذاتي والمخاطرة التي تأججت إبان النهضة ، تأجج النار ، في  
قلوب الناس .

### البرتغال تدسه رحلات الاستكشاف

ولعل من الصواب ان نقدم لهذا القسم من دراستنا  
الموجزة للنهضة بتلك الرحلات الحذرة التي كانت اول ما  
عرّف البحر الابيض المتوسط الى التجار الايطاليين اثناء  
الحروب الصليبية وبعدها ، ما دامت هذه الاعمال المبكرة  
التواضعة هي التي ولدت حب البحر في نفوس الاوروبيين .  
وأياً ما كان ، فإن رحلات الاستكشاف انما تفيد الضرب  
في المحيطات الواسعة ، وهو ما كان للبرتغاليين حظ السبق

اليه على التحقيق . والواقع ان من ابرز الظواهر التي يتعين علينا ان نسجلها في ما يتصل بالمركز التجاري لهذا البلد الصغير هي انه لم يشارك في مكاسب تجارة الافاويه التي حكرها الايطاليون . يضاف الى ذلك ان البرتغال تقوم ، من الوجهة الجغرافية ، قبالة افريقية ، هذه القارة التي اضطر البرتغاليون اضطراراً الى الاهتمام بها ، بسبب من ان شمال افريقية الغربي كان أهلاً بالمسلمين المغاربة الذين كانوا يتربصون بالتجارة البرتغالية الدوائر ، وينزلون بها أفدح الاضرار .

#### الاكتشافات البرتغالية

وفي النصف الاول من القرن الخامس عشر تنصر احد امراء البيت المالك البرتغالي ، المعروف بالأمير هنري الملاح للفكرة التي شاعت في ذلك الحين بسبب من اشتداد النزعة « الانسانية » والتي تقول بإمكان الأبحار حول افريقية الى الهند ، ذلك الصقع الاسطوري الذي تود منه الأفاويه . وإنما دفع هنري الملاح في هذا السبيل أيضاً شعور ديني عميق كان يعمر قلبه بالأمل في ارضاء الله من طريق ادخال الافريقيين في الديانة المسيحية . فتحرك لتجريد البعثات الاستكشافية ، فوفق بعد فترة قصيرة الى اكتشاف جزائر آزور وجزائر الرأس الأخضر Cape Verde . حتى إذا توفي سنة ١٤٦٠ كان بحارته الشجعان قد تقدموا بمراكبهم

الصغيرة على طول الشاطئ، الاقريقي ، حتى خط الاستواء تقريباً . وعلى اي حال فقد أثبت الارض ، في عناد ، وبرغم صوات البحرة ودعواتهم الصارخة ، ان تنعطف نحو الشمال الشرقي انعطافاً ينهض دليلاً على ان اولئك المغامرين أتموا دورتهم حول القارة . واخيراً حقق دياز Diaz هذا النصر البارع سنة ١٤٨٦ متجاوزاً رأس الرجاء الصالح ببضعة فراسخ . وبعد اثني عشر عاماً ، سنة ١٤٩٨ ، توج فاسكو دا جاما Vasco da Gama قرناً من الجهود البطولي بأبحاره عبر المحيط الهندي الى كاليكوت Calicut في الهند . وإذا قد أصبح في مقدور البرتغاليين ان يحصلوا ، منذ اليوم على اصناف الحرير والأفاويه وغيرها من نفائس الشرق من منابعها الأصلية مباشرة ، فقد اقيمت التجارة الاوروبية المعنية بهذه البضائع على اساس جديد . ذلك بان المدن الايطالية ، وفي طليعتها البندقية ، أصيبت بضربة مميته بعد ان عجزت عن ان تباري البرتغال في هذا المضمار . وعلى الرغم من ان العاصمة الادرياتيكية \* قد لا تكون أدركت هذه الحقيقة في الحال ، فليس من شك في ان عصر شبابها قد ولى لتأخذ بعداً في الضعف والانحطاط .

كريستوفر كولومبس يسبح الى الهند غرباً  
والواقع ان الكشوف الرائعة التي دشنها الامير هنري

[المغرب]

\* يقصد البندقية

أوقعت روح التنافس في جميع التلّوب العامرة بالجرأة والبأس في العالم البحري كله . وإذ كان البرتغاليون قد وقفوا انفسهم لمهمة البحث عن بلاد الهند بالدوران حول افريقية فعلام التواني عن سبقهم الى هدفهم من طريق الأبحار غرباً عبر المحيط الأطلسي ؟ ذلك بأنه إذا كانت النظرية البطليموسية التي شاعت بين العلماء صحيحة حقاً فإن من المحال أن يخطيء المرء بلاد الهند عن ذلك السبيل . وقد أنعم النظر في هذه الفكرة حتى استوثق من إمكان تحقيقها ربّان جري . جنوي المولد ، هو كريستوفر كولومبس ( ١٤٤٦ - ١٥٠٦ ) . والحق أن كولومبس تعرّض لآزدراء عظيم من جانب المؤثرين للعافية ، الراغبين في المكوث حيث هم ، وأنفق الايام الطويلة في البحث عن ظهير يستعين بأمواله على تحقيق فكرته ، ليحظى أخيراً بنصرة امرأةٍ حصيفة الرأي بعيدة مرمى الخيال هي ايزابلا ملكة قشتالة . حتى إذا جهّزته ، في ٣ آب سنة ١٤٩٢ ، بثلاث سفن صغيرة أبحر من ميناء بالوس على الشاطيء الأسباني الغربي فبلغ اليابسة عند جزائر باهاما Bahama الصغيرة ، في ١٢ تشرين الأول ، بعد شهرين ونيفٍ من الضرب في المحيط ، وبعد ان وقع في نفوس رفاقه اليأس من النجاح . ثم إنه قبل ان يعود فيتوجه شطر اوروبة اكتشف جزيرتي كوبا وهايتي الكبيرتين المجاورتين ، أيضاً .

البأس الأمر على كولومبس في ما اكتشف واعتقد كولومبس ، بسبب من خطاه في حساب محيط

الأرض ، أنه قد انتهى الى تخوم الهند الأسطورية ، أرض الأفويه المرجوة ، فأطلق على اولئك السكان الوطنيين الغربيين اسم افنود فلزمتهم التسمية حتى يوم الناس هذا .  
 ولما رجع الى اسبانية هلل له البلاط والشعب من اعماق القلب ، وكافأته الملكة ايزابلا على ما تم له من نصرٍ بأن رفعت الى رتبة أمير البحر ( أميرال ) وأنعت عليه بلقب نبيل ، وأسندت اليه منصب نائب الملكة في الجزائر الجديدة .  
 ثم إن كولومبس اردف رحلته هذه بثلاث رحلات متعاقبة ولكنه لم يُفد منها ما يقوده الى تصحيح الانطباع التي أوهمته من قبل أنه بلغ مشارف آسية ، وأرض الأفويه الهندية . وإذ كان كولومبس حاد المزاج سريع الغضب ، وإذ كان يحيط به نفر من الخصوم الألداء ، فقد امتحنه الدهر بحنٍ عجيبة ؛ ولعل اغربها أنه اعتقل في إحدى رحلاته المتأخرة الى الاراضي التي اكتشفها وحمل الى اسبانية أسيراً مصفداً بالحديد ؛ حتى إذا توفي سنة ١٥٠٦ نسبي بأسرع ما يكون النسيان . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل عداه الى ما هو أدهى . ذلك بأن العالم الذي اخرجته كولومبس من الظلمات الى النور \* لم يوسم ، لتكد الطالع

\* تحسن الاشارة العارضة الى ان الشماليين القدماء Northmen اكتشفوا اميركة في القرن العاشر ، متطابقين اليها من آيسلندا ودعوها فينلندا Vinland . ولكن لما كان اكتشافهم لم يقدر له ان يستمر ويتابع فإنه لم يمد على الحضارة بفائدة ، ولا ينتقص مطلقاً من شهرة كولومبس التي لها في استحقاق .  
 [ المؤلف ]

الفاجع ، باسمه هو ، بل باسم رحالة وجغرافي ليس له كبير شأن نسبياً ، هو أميريكو فسبوتشي Amerigo Vespucci من ابناء البندقية .

### الاستكشاف بصبح شهرة

وننتج عن هذه الانتصارات الرائعة ان اضحى الاستكشاف شهرةً تعصف بالنفوس ، وبخاصة بين البرتغاليين والاسبان . ومع ترامي البحار وشدة مخاطرها فقد شعرت كل نفس بمغامرة بانها مدعوة ، من اعماقها ، الى الضرب في الاصقاع المجهولة حيث الشهرة العريضة والكنوز التي تنتظر من يستبيحها . وهكذا تبعت الرحلة الرحلة ، وكل تضيف لبنة جديدة الى صرح الجغرافية العالمية . ففي سنة ١٤٩٧ بلغ جون كابوت John Cabot وهو بندقى في خدمة هنري السابع ملك انكلترة ، جزيرة رأس بریتون Cape Breton في اميركة الشمالية . وفي سنة ١٤٩٩ استطاع بنزون Pinzon الذي صحب كولومبس في رحلته الاولى ان يرود ساحل البرازيل كله ، وبذلك اخذت الكتلة القارية العظيمة المحجوبة بستار من الجزر التي اكتشفها كولومبس تراءى للعيان شيئاً بعد شيء ، ليتضح انها لم تكن لا الهند ولا الصين . والحق ان هذا الجهد المتضاعف انتهى الى اوجه عندما حاول ماجلان Magellan ، وهو برتغالي في خدمة اسبانية ، ان يبلغ آسية ، سنة ١٥١٩ ، عبر مجاز قاتم الى جنوبي الحاجز القاري الاميركي . حتى إذا نجح في الدوران

حول رأس هورن Cape Horn كان اول اوروبي افترع المحيط الهادي . وفي سنة ١٥٢٢ رجعت سفينته المدعوة بجوق « النصر » Victory الى نقطة انطلاقها من اوروبه ، بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات . وعلى الرغم من ان منجلان نفسه لم يعش ليقطف ثمره جهده ، اذ انه قتل في جزائر الفيليبين ، فقد حظي من غير شك بشرف الطواف البحري لاول مرة حول الكرة الارضية .

### اوروبه نهضت سياسيين مختلفين في آسية والامريكيتين

ولما كانت حركة الاستكشاف ترجع في اصولها الى غرائز الانسان التجارية ، فسرعان ما سخرت لأغراض التجارة . ولكن هذا لم يكن كل شيء . ذلك بان البرتغاليين والاسبان اخذوا على عاتقهم ايضاً ، بعد ان استشعروا القوة والبأس ، ان ينشروا النصرانية في الاصقاع الجديدة وان يعمروها بمهاجرين من الوطن الأم . وبكلمة اخرى ، لقد تبنا سياسة ترمي الى صبغ البلاد بصبغة اوروبية خالصة . ومهما كان فلم تنقض غير فتوة وجيزة حتى اتضح ان هذا البرنامج الضخم لا يمكن ان ينجح إلا في قارتي اميركا الشمالية والجنوبية ، بسكانها المتشتتين المتوحشين . أما في بقاع آسية الكثيفة السكان ، وبخاصة في الهند والصين حيث كان اهل البلاد الوطنيون يعتزون بحضارة تعدل ، إذا قيس بمقياس موضوعي ، حضارة اوروبه وان تكن من نوع آخر ، فقد

تعددت حركة التنصير والاستعمار بعقبات لا تكاد تحصى .  
ومن هنا نسجل تبايناً قوامه أن آسية ظلت ، كما بدأت ،  
حقلًا من حقول الاستثمار التجاري الخالص ، في حين حفلت  
الاميركيتان تدريجياً بالمهاجرين المستعمرين ، واصطبغت بالصبغة  
الاوروبية .

البرتغال واسبانية تحاربه امطار الاراضي الجديدة  
وكان للبرتغال واسبانية في هذا المضمار الاستعماري امتياز  
على سائر الدول الاوروبية بسبب من انها كانتا أسبق هذه  
الدول الى اكتشاف الاراضي الجديدة . وقد بلغ الحرص  
بهاتين الدولتين ، في وقت ما ، حد التفكير بأقضاء أيما  
فريقي ثالث يسمى الى ان يكون له نصيب في ملك العالم  
الجديد ، وبذلك تتقاسمان وحدهما غناؤه البالغة . والواقع ان  
خلافاً نشب بين الدولتين فتحاكما الى البابا ، لتتفقا بعد  
مساومة طال امدها ( ١٤٩٦ ) على قسمة الدنيا الجديدة على  
اساس خط الطول الواقع الى ثلاثائة وسبعين فرسخاً غربي  
جزائر الرأس الأخضر ؛ فكانت جميع الاراضي الواقعة الى  
شرقي هذا الخط من نصيب البرتغال وجميع الاراضي الواقعة  
الى غربيه من نصيب اسبانية . ولكن الدولتين لم تستطعا  
الاحتفاظ بنتائج هذه التسوية العائدة على كل منها بالحير  
العميم . ذلك بان كلاً منها كانت خليقة في نهاية المطاف  
بان لا تمتلك غير البلاد التي استطاعت ان تضع يدها عليها  
عملياً ، في حين وجدتا كلتاهما ان من المتعذر عليها ايضاً

الابواب في وجه الدول الاخرى المتنافسة . وهكذا قدر  
لانكثرة ولفرنسة ( وربما لغيرهما من البلاد ايضاً ) ان  
تشتوكتا ، عاجلاً او آجلاً ، في هذا السباق الى الممتلكات  
الجديدة وهما على مثل اليقين ، بالنسبة الى مواردها الكبيرة ،  
من النجاح في ما تسعيان اليه .

### مناظر النفوذ الاستعمارية البرتغالية والاسبانية

والواقع ان التنافس الاستعماري الضاري بين الدول  
الاوروبية هو من اهم الظواهر التي كانت شغل اوروبية  
الشاغل في العصر الحديث . ولسوف يكون من غرض هذا  
الكتاب ان يفصل القول في هذا التنافس المستعر . اما  
الآن فسنبجزيء بالنظر الى الدول الاوروبية المختلفة مرتبطةً  
بالاصقاع الرئيسية التي وجهت نشاطها الاستعماري اليها بادبيء  
الأمر . فقد اقام البرتغاليون مراكز تجارية على طول  
الساحل الافريقي وشواطيء آسية الجنوبية ليسيظروا طويلا ،  
بواسطة سلسلة غير منقطعة من المنشآت المحصنة ، على تجارة  
المحيط الهندي . كذلك نزل منهم في البرازيل ، التي تقع  
شرقي خط الطول المتفق عليه مع اسبانية ، عددٌ كافٍ  
لطبوع البلاد تدريجياً بالطابع البرتغالي في اللغة والعادات .  
اما الاسبان فقد اقاموا قواعدهم الاستعمارية الرئيسية  
في المواطن التالية (١) جزائر الهند الغربية ، الى حيث  
وتجه كولومبس نفسه سيل الهجرة لأول مرة .

(٢) المكسيك التي كسبها كورتز Cortez الفاتح الجسور ،  
للأسبان . (٣) بيرو التي فتحها بيتزارو Pizarro وكانت  
يُعدّل كورتز جسارةً وبسالةً . (٤) جزائر الفيليبين التي  
كان الفضل في اكتسابها ماجلان . وبواسطة جزائر الهند  
الغربية والمكسيك وبيرو ، بوصفها قواعد للانطلاق نائية ،  
احاطت اسبانية باميركة الوسطى والجنوبية كلها ، وما لبثت  
ان احتلتها ( خلا البرازيل ) في حين انها كسبت ، بواسطة  
جزائر الفيليبين ، موطي، قدم ذا اهمية في المياه الآسيوية .

### انكطرة تنج ببطء نظر الساحل الاميركي

ولم تشترك دول اوروبة الشمالية في الصراع على العالم  
الجديد إلا في ما بعد ، وفي ببطء كثير . والواقع ان  
ما بذله هنري السابع الانكليزي من جهد ليضمن لبلاده  
نصيباً من الغنيمة إنما يستمد أهميته من النتائج التي ما كان  
يتوقعها . ففي سنة ١٤٩٧ وجه هذا الملك الانكليزي  
جون كابوت في رحلة استكشافية ، فوفق كما سلفت الإشارة  
الى ان يبلغ ساحل اميركة . وبعد أيام هنري وقد المشروع  
الانكليزي ليتجه عند نهضته الى كشف طريقٍ آخر جديد ،  
عبر مياه الشمال الغربي ، الى قبة الآمال جميعاً ، اعني بلاد  
الأفاويه الآسيوية . وإنما قصد الأنكاي من وراء هذه الحطة  
الى القيام بمثل المأثرة التي تمت للبرتغاليين والأسبان الذين  
بلغوا آسية عن طريقين ، افترع احدهما الأولون ( البرتغاليون )

جنوباً بشرق ، وابتكر ثنيتها الآخرون ( الاسبان ) جنوباً بغرب . ومع ان الحطة الانكليزية اُنيت بانفسل بسبب من امتداد اميركة الشمالية امتداداً بعيداً في المحيط المتجمد ، فقد كان من اثرها انها حفظت على الاقل اهتمام الانكليز بالسحل الاميريكي الشمالي من ان يتطرق اليه الذبول . ولكن الانكليز لم يولوا هذا الميدان عنايتهم الكاملة إلا في اوائل القرن السابع عشر ، حين شرعوا في استعمار ساحل الأطلسي استعماراً نظامياً .

فرنسة نغم كندا ولويزيانا #

وكان الفرنسيون اكثر ثقلاً من الأنكليز في العمل الاستعماري فلم يحاولوا بصورة جدية أن يفتحوا لأنفسهم فتحاً خاصاً إلا في عهد الملك هنري الرابع ( ١٥٨٩ - ١٦١٠ ) . ومن ذلك الحين اسرعوا الى تلافى نتائج اهمالهم ، فنزلوا في كندا ثم لويزيانا ، اي في حوضي سانت لورانس والميسيسيبي العظيمين .

---

# احدى الولايات المتحدة الاميركية وهي تقع على خليج المكسيك وتقوم فيها دلنا الميسيسيبي . وانما دعيت بهذا الاسم نسبة الى الملك لويس الرابع عشر . وكانت لويزيانا ملكاً للفرنسيين فاشترتها الولايات المتحدة في عهد رئاسة توماس جفرسون ( سنة ١٨٠٣ ) من نابليون بونابرت بخمسة عشر مليون دولار ، وكانت اذ ذاك تمتد من الميسيسيبي الى جبال روكيز Rockies ومن خليج المكسيك حتى اميركة الشمالية الأنكليزية . [ المغرب ]

## المانيّة وإيطاليّة لانشاركاه في الحركة الاشتراكية

وإذا ادركنا ان النجاح الاستعماري كان مرهوناً في كل حين بنصرة دولة قوية في الوطن الأمّ اتضح لنا كيف ان المانيّة التي كان امراؤها الاقطاعيون قد نجحوا في ان ينزلوا بالسلطة المركزيّة الى دركة العجز لم يكن لها في رحلات الاستكشاف نصيب ، وهكذا خرجت صَفيرة البدين من غنّام التوسع الاستعماري . والشيء نفسه ينطبق على ايطاليّة التي كانت تجزئتها السياسيّة البائسة سبباً في اقصائها عن الغنيمة الاسبوية والاميركيّة . لقد كانت هذه المكاسب الضخمة الكامنة في تلك البقاع من حق الدول القوية المتحددة ، ليس غير .

## « و » - نشوء الرأسماليّة

### الاقتصاد الراسخ اقتصاد مديني ومهنة النقابة

وهناك ظاهرة من ظواهر عصر النهضة لا نستطيع إغفالها ، وهي انه ابرز لنا بصورة ناضجة شكلاً من اشكال التنظيم الاقتصادي نلمح فيه جرثومة الرأسماليّة الحديثة . فقد لاحظنا ونحن ندرس نشوء المدينة ان الحياة الاقتصادية النامية فيها تركزت حول النقابة . وكانت النقابة مؤسسة رائعة في طريقها وبالقياس الى عصرها . لقد غذّت سوق المدينة التي كان لها حق احتكاره ، ولكنها تحملت أيضاً

واجبات تتكافأ وهذا الامتياز ، فكانت تقدم الى المدنيين  
سليماً سليمة بثمن معتدل . وكان لنظام النقابة  
الاقتصادي غاية أبعدها هي إزاحة الوسيط ، اي الرجل الذي  
لا يعمل شيئاً غير التجارة ، من السوق ، بان طلبت الى  
كل من ينتج السلع ان يعرضها ويبيعها في دكانه .

### التاجر المقامر ينفرد بالتجارة الخارجية

ومهما كان فان نظام النقابة الذي وضع لاغراض محلية  
انتهى الى ان يكون عديم الفعالية في اللحظة التي نشأت فيها  
مسألة تصدير السلع التجارية تصديراً ناشطاً . فقد اقتضى هذا  
العمل تبصراً ومبادرة ، وهما امران لا يجتمعان في غير  
التاجر المقدم الذي يستطيع ان يحزم امره بحرية ، والذي  
لا تعرفه الانظمة الدقيقة التي تفرضها النقابات في امور البيع  
والشراء . ومن هنا لم تكد التجارة الايطالية مع المشرق  
اثناء الحروب الصليبية وما بعدها ، مثلاً ، تنمو وتردهر حتى  
خرجت على سلطة النقابة ، واستقل بها نفر من التجار  
المؤيدين بعبقريه في العمل خاصة . ومع ان المخاطر التي  
تنطوي عليها هذه المشروعات الخارجية الواسعة الافق كانت  
ضخمة ، فان المكاسب المتكافئة معها ضخامة قد أورثت  
اصحابها ثروات لم تقم في وهم اهل الحرف واصحاب  
الحوانيت المقيمين في ارض الوطن ، وعملت في المدن  
الايطالية أولاً ثم في الغرب كله على نشوء طبقة صغيرة من

أمراء التجار والرأسماليين الذين صنعوا خدهم لسائر افراد المجتمع .

### شركات التجار ونشر المصارف

وعلى الرغم من ان العادة جرت في ذلك العهد بان 'تكتسب الثروة من طريق النشاط الفردي فقد اخذت 'تجمع ، وفقاً لمقتضى العصر ، من طريق المشاركة أو التعاون في المغامرة التجارية أيضاً . لنفرض مثلاً ان بندقياً ذكياً رأى سائحة الربح في ان يستورد من الافاويه ما يملأ سفناً بكاملها ، من الاسكندرية . إنه لا يستطيع ان يجهز السفن ، وان يزودها بالسلع التي ستحملها في هذه الرحلة البعيدة لتباع في السوق المصرية ، ولا يطيق دفع اجور جميع الملاحين العاملين عليها ، من موارده الخاصة . إن عليه ان يبحث عن شركاء يقاسمونه المكاسب المرجوة بنسبة تتفق ومدى إسهامهم في المشروع . فاذا نجحت الشركة ، وهي 'تنشأ باديء الامر لرحلة واحدة ، فقد تتخذ شكلاً ثابتاً مستقراً . وإذا كانت رابطة النسب الدموية ادعى الى التعاطف والثقة فقد اتسمت اكثر الشركات الاولى بالسمة العائلية . يضاف الى ذلك انه لما كانت شركات التجار على اتم الاهبة لاغتنام كل فرصة تسنح لها ، فانها لم تقصر جهدها على التجارة فحسب بل عدتها الى الاعمال المالية التي ما كان يمكن للتجارة ان تقوم بدونها ، بسبب من حالة النقد الداعية الى الخيرة

والارتباك . والحق ان جميع الشركات التجارية الاولى  
نهضت ، بلا استثناء ، بأعمال المصرف ايضاً . اما الشركات  
الفلورنسية التي نمت ، بذكاء لا يكاد يضل ، بإمكانات العمل  
المصرفي الى أعلى الدرجات ، فقد اكتسبت مدينتها تفوقاً  
مالياً كالذي تتمتع به لندن او نيويورك في يومنا هذا .  
اما كيف انتهى المال ، منذ القرن الخامس عشر ، الى أن  
يكون ملك مطلق السلطان فيتضح من مثل شركة آل  
مديتشي ، وكانت في جوهرها مصرفاً عالمياً جمع رأسماله  
الضخم بزعامة اجيال عدة من التجار البارزين ، فعنيت ، على  
الطريقة المميزة للرأسمالية الاولى ، بالتجارة واعمال البورصة في  
كل جزء من العالم المعروف لذلك العهد . حتى إذا كانت  
النصف الثاني من القرن الخامس عشر كان آل مديتشي  
يديرون مصرفاً فرعياً في كل مركز هام من اوروبة .  
واخذوا في الوقت نفسه سبيلهم الى الحكومة الفلورنسية  
ليكون من نتيجة ذلك ان يصبح رئيس المؤسسة ، تدريجياً ،  
حاكم المدينة الفعلي .

### الرأسمالية تنفضي على نظام النقابة الاقتصادي

ثم إن تطوراً مماثلاً ، وإن يكن أكثر بطؤاً ، عبد  
الطريق في الاصقاع الشمالية من الالب وبخاصة في الفلاندر ،  
لسلطان المال ، لان الرأسمالية التي نشأت مع التجارة  
الخارجية لم تلبث ان اثرت في نظام النقابة الاقتصادي

الوسيط كله . كان في مقدور المصدر المتصل بجميع الأسواق ، والمسيطر على موارد وافرة ان يشتري الحامات ، كالصوف او الجلد بانجنس جداً مما تستطيع النقابة المحلية . ومن طريق عرض مقادير محدودة من مخزونه ، من ناحية ، والتعاقد مع المنتجين الفرديين على شراء نتاجهم السنوي بكامله ، من ناحية ثانية ، وفق هذا المصدر الى ان يخضع النقابات قليلاً او كثيراً لسيطرته . ومنذ القرن الرابع عشر كانت صناعة الاقمشة المزدهرة في فلورنسة قد خضعت خضوعاً كاملاً لحفنة من امرء المال الكبار الذين وقفوا انفسهم على مجرد شراء الاقمشة ابتغاء تصديرها ، دون ان يُنتجوا هم ياردةً واحدة بحيث لم يعد نظام النقابة منسجماً مع المبدأ الأصلي الذي انبثق منه . والحق ان الملاحظ ليحس ان سادة نقابة الصوف الفلورنسية قد تضاءلوا ، في غمرة من تلك الاحوال المتغيرة ، تضاءلاً امسوا معه شبه بطبقة من وكلاء الحوانيت ، في حين برز الاجراء اليوميون والمتكلمون على الصناع وكانهم بروليتاريا من العمال المستأجرين في العصر الحديث .

### نشوء المجتمع الرأسمالي

ومثل هذه الحركة يمكن ان تلاحظ في الفلاندر ، في وقت متأخر بعض الشيء ، ومن بعد ذلك في انكلترة . وهي تتكشف عن تطور اقتصادي جديد كان خائباً بأن

ينتهي آخر الأمر باقصاء النقابات الاشتراكية إقصاءً كاملاً عن المسرح ، وبإنشاء نظام اجتماعي رأسمالي قائم على التنافس والمزاومة . ولا محلّ لأقلّ الشك في ان هذا التطور كان امراً محتوماً ، وقدراً مقدوراً ، مادام ينسجم كل الانسجام مع القوى السائدة في عصر النهضة : مع اتساع العالم وفرصه السوانح ، مع الفلسفة الفردية التي تدعو كل رجل الى ان يُفيد أقصى ما تكون الأفادة من كفاءاته وقواه ، ومع الاستعاضة عن المدينة بوصفها وحدة المجتمع الاقتصادية السياسية بالدولة يقوم عليها الملك القومي المُحدث modern . والواقع ان ملوكاً من مثل لويس الحادي عشر الفرنسي وهنري السابع الانكليزي ، او من مثل الملك فرنسيس الأول والامبراطور شارل الخامس ، في القرن الذي تلا ، اعتمدوا الاعتماد كله على اصحاب المصارف والرأسماليين ، ونصروهم على اصحاب الحوانيت الذين ناضلوا نضال اليائسين ليحتفظوا بنظام النقابات المألوف ، الآخذ سبيله ، في اطراد ، نحو الهاوية .

### « ح » - الملكية القوية

التعريف السياسي بين المدين والمالك

بقي ان ننظر في الحركة السياسية التي طبعت عصر النهضة بطابعها المميز . فقد رأينا من قبل كيف تحدث المدينة ، في العصر الوسيط ، الامير الأقطاعي وكيف اخذت سبيلها

الى القوة أخذاً مطرداً ، على الرغم من ان الطبقة الاقطاعية ظلت عاملاً قوياً في الموقف . وكان الملك في النظرية الاساسية التي سادت العصر الوسيط هو نفسه اميراً إقطاعياً ، وإن يكن اميراً اقطاعياً أوّل مُعترفاً له برئاسة شرفية ومحدودة الى درجة بعيدة على اقرانه الامراء . وإذا كان الملك من اصل اقطاعي ، وإذا كانت له اهوؤه وتفرضاته الخاصة ، فقد عجز عن ان يدرك ، في كثير من الأحيان ، ان حركة المدن هي في طبيعتها اداة صالحة لتعزيز مركزه ضدّ النبلاء الآخرين . ولكنه ما لبث ان وعى هذه الحقيقة اكمل الوعي ، في نهاية المطاف ، في حين كانت المدن جدّ تواقّة الى ان تمنحه ، من غير ما اعتبار لبعد نظره او قصره ، تأييدها ضدّ النبلاء المُدّعين الذي كانت سلطتهم غير القانونية على الريف تعترض حرية تجارتها . وكذلك انتهى الملك الى ان يكون ، في اوروبة كلها ، هو الحليف السياسي الطبيعي للمدن .

### انحطاط قوة الملك في ايطالية وألمانيا

ألفت المانيا وايطالية ، لأسباب خاصة تتعلق بالتاريخ الوسيط ، الامبراطورية الرومانية المقدسة فكان عليهما سيده واحد هو الامبراطور الروماني المقدس . وإذا قد واجه الامبراطور في المانيا طبقة من النبلاء اصحاب الاقطاع الواسعة وواجه في ايطالية البابا تؤيده المدن فقد كان في

خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر مغلوباً على أمره  
غلبة تامة انتهت به في كلا البلدين ، وبخاصة في ايطالية ،  
الى غاية العجز . ففي ايطالية استقلت المدن وغيرها من  
المنظمات المحلية استقلالاً حقيقياً ، بينما تمت للامراء الاقطاعيين  
في المانية سلطةٌ تعادل سلطة الامبراطور . حتى إذا كان  
عصر النهضة ازدادت حال الامبراطور سوءاً . ففي ايطالية  
أقصى عملياً عن الميدان ، في حين انه على الرغم مما  
بذل ، في المانية ، من جهدٍ متأخر للتمكين لنفسه بمناصرة  
المدن ، ظل ضعيفاً الى درجة يبدو معها وكأن الادواق  
dukes العظام ورؤساء الاساقفة - وكانوا سادة البلاد  
الحقيقيين - قد تساحوا في بقاءه تساحاً .

ملوك اسبانية وفرنسة وانكلترة بجهلهم المزمع منكم لهم

أما الملكية الاقطاعية في اسبانية وفرنسة وانكلترة ،  
فقد اتخذت خلال هذا العصر نفسه ، عصر النهضة ، سبيلاً  
معاكساً وازدادت بسطةً وقوةً يوماً بعد يوم . لم يكن  
الملك في هذه البلاد ، لأسباب تتعلق بالتاريخ الوسيط ،  
'عرضةً' لتلك الاحوال التي استنفدت حيوية الامبراطور  
الروماني المقدس . وهذه الحصانة استطاع أن يفيد ابعدها  
ما تكون الافادة من نشوء العنصر المدني القوي المناهض  
للنبلاء والمعنى ، في نشاط وفعالية ، بمضاعفة ثروة البلاد .  
فكان إذا احتاج الى بعض المال ، وكثيراً ما كان يحتاج

سبب من محاولة النبلاء الحاسدين إفقاره على الدوام ، التمهسه عند أهل المال ، وهم رعاياه المدينيون ، اصحاب العريكة اللينة ، بعد ان وجد هذه الطريق اسهل السبل واقربها . واذا كان هؤلاء يقتضونه المثوبة على خدماتهم له ، فقد نالوها في شكل عهود بلدية منحهم سلطات اوسع ، من ناحية ، وامتيازات دستورية أعطتهم حق التمثيل في مجلس المملكة الاقطاعي ، من ناحية ثانية . وكان هذا المجلس الاقطاعي ، او البرلمان ، مؤلفاً في الاصل من الاكايروس والنبلاء ، حتى إذا جمع ممثلو المدن الى ممثلي الاكايروس والنبلاء ، الذين كانوا يؤلفون ، حسب القانون الاقطاعي ، الطبقة الاولى والطبقة الثانية على التعاقب اتخذ هؤلاء المدينيون صفة الطبقة الثالثة واسمها . ولم يتم مدن الدول الاقطاعية الثلاث التي ندرس ، هذا التقدم في الوضع السياسي إلا في عهد النهضة بصورة خاصة .

### العاطفة القومية: نفضي الى تأييد الملك

ولم يمض غير قليل حتى اضيفت الى روابط النظام المالي والدستوري القائمة بين المدينيين وملكهم رابطة "عاطفية" قوية هي العاطفة القومية . وعلى الرغم من أن العصر الوسيط لم يخجل من النزعة القومية بالكلية فانها لم تصبح عاملاً سياسياً فعلاً إلا عصر النهضة ، لتنمو من ذلك الحين باطراد ، كلحن يتفتح شيئاً بعد شيء في مقطوعة من مقطوعات

الأوركسترا الموسيقية ، حتى تبلغ أوجها العادر في القرن التاسع عشر . والواقع ان القومية شعورٌ يقوم على وحدة اللغة والعادات ، وهي تتصل تاريخياً بالنظام الاجتماعي الجديد الذي دشنته المدن . وإذ كانت القومية كامنة وغير ذات شأن في عصر الاقطاعية غير المنازعة ، فقد برزت أكثر ما يكون عصر النهضة ، عندما كانت الافكار التي تدب بها الطبقة المدنية ومصالحها الجماعية تتعرض لهجوم يشنه عليها عدو غريب . وهكذا نشأت القومية الاسبانية كرجع (رد فعل) لاستيلاء المسلمين على البلاد في القرن الثامن ، ثم قويت واشتدت خلال الصراع الطويل ضد المحتل الغريب . كذلك كانت القومية الفرنسية ، على يشهد اسم جان دارك أبلغ ما تكون الشهادة ، وليدة الغزو الانكليزي وحرب المائة السنة . زد على هذا ان الانكليز حققوا وعيهم القومي الخاص أكثر ما حققوه ، في الصراع نفسه . ويجب ان نحترس من المبالغة في قدر الحماسة القومية الجديدة التي عرفتها الشعوب الغربية لان الشعور المتناغم المنتظم لجميع طبقات الشعب لم يكن له وجود ، ما دام النبلاء يتجافون عن دهماء الناس ، ويحسبون انفسهم من جبهة خاصة تفوق جبهة العوام فواقعاً لا نهاية له . وأياً ما كان ، فلا سبيل الى إنكار هذه الحقيقة ، وهي ان المدن التي لم يعمرها في طور نشوئها الاول غير نوعٍ من الوطنية المحلية ، الضيقة جداً ، أصبحت بتعاقب الأيام نصيرة العاطفة القومية الاكثر شمولا ،

وأنها أذاعت في الناس ، من اهل اللسان الواحد ، حبا  
للوطن اكثر سماحةً وكرماً . ولكن لما كان الملك هو  
رأس البلاد ، بوصفه الرجل الذي تجسدت في شخصه معاني  
الوطن في اعين الناس ، فقد لزم عن ذلك ان يؤول كل  
اتقاد في العاطفة الوطنية الى مصلحته .

### نمو القوة الملكية بنظري على صراع مع الكنيمة ايضاً

وهكذا افضت مجموعة من الاحداث والاحوال المتصلة  
بالمدين والحضارة الجديدة الى نصره الملك في صراعه مع النبلاء .  
ولكن يجب ان يضاف الى النبلاء ، كأعداء بارزين للسلطة  
الملكية ، رجال الاكليروس الذين تمت لهم في العصر الوسيط  
جمهرة من الحقوق والحصانات انتهت بهم في مجموعها الى  
استقلال حقيقي عن الدولة . حتى اذا ذكرنا ، فوق ذلك ،  
ان البابا ذهب في اوج القرون الوسطى الى حد التصريح  
بان الملوك إنما يحكمون دولهم كأقطاعات بابوية ، بنعمة  
منه ، كان علينا ان نقر بان الملك قد واجه في العصر  
الوسيط حالة صعبة . وهكذا تحتم على الملك ، اذا ما اراد  
ان يصبح في يوم الرئيس الفعّال لشعب موّحد ، ان يجد  
من دعوى الاكليروس العريضة وامتيازاتهم كما قد حدث من  
دعوى النبلاء وامتيازاتهم . والحق ان الطريقة المعقولة الوحيدة  
لانشاء امة متحدة كانت إخضاع الطبقات جميعها لقانون عام  
يتمثل في الملك . ومن هنا لزم عن حركة التوحيد القومية ،

في حينما نشأت ، صراعٌ مع الكنيسة لا يقل قسوةً ومنطقيةً  
عن الصراع مع النبلاء .

### التدابير التي اصطنعها الملك للتكميل لسلطانه

كان من همّ الملك في عصر النهضة ان يوسع المملكة القائمة  
على محورٍ منه ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وليس من  
ريب في ان هذا التوسع كان جوهر البرنامج الملكي الذي  
تساوت في السعي لتحقيقه اسبانية وفرنسة وانكلترة جميعاً .  
وعلى الرغم من ان تطبيقه اختلف اختلافاً بيناً في كلٍّ من  
هذه البلدان فمن الملحوظ ان النتائج قد تلاقت ، الى حدٍّ  
بعيد ، على صعيدٍ واحد . لقد استطاع الملك من غير ان  
يزعج ، ضرورةً ، محاكم العدل العديدة الموروثة عن النظام  
الاقطاعي ان يكتن لمركزه كرئيس لنظام العدل القومي ،  
وكمحكمةٍ عليا يفرع اليها المتقاضون . كذلك ضاعف عددَ  
الموظفين المكلفين رعاية المصالح الملكية في الاقاليم ، منشئاً  
بهذا إدارة ملكية . ثم إنه زاد دخله بالاعانات التي كانت  
المدن تقدمها اليه ، والتي 'عني بان يجعلها ثابتةً ومطردهً  
ليضع بما قد تم له من الوسائل المتعاضمة الاساس لقوة مسلحة  
دائمة ، غير معتمدة إلا عليه وحده . والحق ان صفة المحاولة كانت  
أغلب على هذه التدابير بما تدلّ عليه الأحكام الآنف ذكرها ،  
الذاهبة في التحديد الى مدى بعيد . ففي احوالٍ كثيرة ،  
كالتي قامت في انكلترة مثلاً ، إبان حرب الوردتين ، بدت

الملكية ، وكأنها على وشك ان تستط في مهلكة . ولكن النزعات التي رسمنا ههنا خطوطها الكبرى تابعت عملها من وراء حجاب لتخلص الى إخراج تلك الظاهرة السياسية الجديدة ، اعني الملكية القوية .

### اسبانية وفرنسة وانكلمرة تصبح ملكيات قوية

وقد نتج عن هذا التطور السياسي ان برزت اسبانية وفرنسة وانكلمرة للعيان ، فجرّ عهد الاصلاح ، في ثوبٍ من الوحدة والبأس جديد . ومع ان الانعتاق من الاغلال الاقطاعية اقتضى هذه الدول الناشئة زماناً طويلاً فيمكن القول انها اضحت حوالى سنة ١٥٠٠ مجهزةً تجهيزاً حسناً بادارة مركزية حديثة مكنتها من ان تصطنع سلطةً لم تكن لتقوم في خيالها ، في تاريخها الأول .

### كلمة اخيرة

إن الزوايا الثماني التي حاولنا ان نتعرف منها الى عصر النهضة تبدو للقاريء سبلاً متعدّاتٍ سلكها الرجل الاوروبي ابتغاء الوصول الى ميادين جديدة . ولكننا اذا ذكرنا ان هذا الرجل كان يقيم بناء حضارة ووضعت قواعدها في العصر الوسيط وجدنا مناحي نشاطه المتعددة ، في العصر الجديد ، تلتقي في وحدة رائعة . ذلك بان النهضة تفيد ، حين ننظر اليها هذا النظر العضوي ، انعتاقاً من الطفولة ، بقيودها التي

تعلو على العد والاحصاء . ومن المحقق انه ليس خيالاً خالصاً ان نرى في إنسان العصر الوسيط طفلاً حياً يُؤثر القعود في المنازل ملتزماً موقده المألوف وعازفاً عن ان يرى الى ما وراء حدود بيته وابرشيته . يضاف الى ذلك ان الكنيسة ، التي قادته باليد كما تقود الأم ولدها ، كلفته ان يقلل من احتفاله بدنيا المفهوم هذه ، وان يكحل عينيه بروى الحياة التي ستأتي . ومن هنا تلون العصر الوسيط بالوان من الاستسلام وقهر النفس . فالتمس الناس بالمشات والالوف العزلة في حجرة الدير متبرئين من الحياة قبل نهايتها الطبيعية . ومع ذلك فقد دب في نفوس الالوف وعشرات الالوف الآخريين روح " جديد واومضت إشرافة " لم يكن في الامكان إطفائها او إنكارها . حتى اذا بلغ الطفل اشده في الموعد الحق دخلت حياة اوروبة الغربية في طور اسمى جديد . ههنا تكمن اهمية النهضة ، وهذا هو السبب الذي يجعل تلك المظاهر الثمانية التي نظرنا في الحركة على ضوءها تتكشف - بالاضافة الى التحلل من القيود الذي يكون في كثير من الاحيان عابثاً ماجناً - عن اختبار جريء لفرص جديدة . لقد اكدت النهضة ، في نجاح بالغ ، على ان ميزة الحضارة الاوروبية الخاصة سوف تكون التجربة وحب المخاطر الى درجة تعدو تلك التي كانت لايمنا حضارة حدثتنا عنها صفحات التاريخ . واعلنت ان الحضارة الاوروبية ، سواء اكان ذلك لصلاحها ام لطلاحتها ، لن تفرغ تحت تأثير من سلطان

الكنيسة في قالب ثابت محتوم ، بل ستفرضُ على الرجل  
الاوروبي ، مجعها ما بين الفضول وروح المغامرة ، واجباً  
تجديد الذات تجديداً لا ينقضي .

# فهرست

صفحة

## ١ . المذهب الجديد في كتابة التاريخ ٣ - ١١

المذهب التقليدي في التاريخ يعنى بالسياسة ٣ - الحركة المصرية تحطم  
حواجز المذهب التقليدى ٤ - القرن العشرون يشهد فجر المذهب الجديد في  
التاريخ ٥ - « التاريخ التركيبي » غير الناضج ومحاولة « ج . ويلز » ٧ -  
« التاريخ الجديد » سيكون تاريخاً للحضارة ٨ - هذا الكتاب يعنى  
بالحضارة الأوروبية ٩ .

## ٢ . حضارة اوروبة في العصر الوسيط ١٢ - ٤١

تحديد العصر الوسيط وعصر النهضة زمانياً ١٣ - في العصر الوسيط  
نشأت الشعوب الاوروبية الكبرى ١٤ .

### « أ » نظام الاقطاع

نظام الاقطاع مجموعة من المؤسسات البدائية ١٥ - العصر الوسيط نتيجة  
لاخفاق حضارة المدن القديمة ١٧ .

### « ب » نهضة المدن

حياة المدينة تعود من جديد حوالى سنة ١٠٠٠ ب . م ١٨ - تقدم

المدن السريع من النواحي المادية والسياسية والثقافية ١٨ - العنصر الجديد يرفع الحضارة الوسيطة الى أوجها ١٩ - المدينة تروج للحكم الذاتي ومن ثم للملكية المطلقة ٢٠ - المدن تمهد السبيل لنظرة دينية وفلسفية جديدة في الحياة ٢١ - العصر الوسيط محاولة لأقامة مجتمع مسيحي تسيطر عليه كنيسة مطلقة ٢٢ .

### « ج » الكنيسة

نشوء النصرانية والكنيسة ٢٣ - تنصر البرابرة وتأسيس كنيسة مسيحية ٢٤ - الكنيسة هي السبيل الوحيد للخلاص ٢٥ - أسرار الدين المقدسة هي روح الكنيسة ٢٦ - أسرار الدين السبعة ٢٧ - حكومة الكنيسة وإدارتها ٢٩ - الفرق الرهبانية تعبر عن روح الورع في العصر الوسيط ٣٠ - الرهبان المسؤولون ٣١ - تنازع السلطات بين البابا والاساقفة ٣٢ - الاكليروس يؤلفون الطبقة الاولى في المجتمع الوسيط ٣٣ - الكنيسة تعمل كدولة مستقلة ٣٣ - الكنيسة تحجب العصور وتسيطر على التعليم ٣٤ - الكنيسة تدعي المساواة بالدولة ثم السمو عليها ٣٥ - رجال الدين يسيئون استعمال سلطاتهم ٣٧ - نقد العقيدة والنظام يعتبر بدعة ٣٨ - العصر الوسيط يشهد ظهور عدد من البدع الفردية والجماعية ٣٩ - أفكار وقوى جديدة تؤذن بعصر جديد ٤٠ .

١٢٢-٤٢

### ٣ . حضارة أوروبا في عصر النهضة

#### « أ » تطور التجارة والصناعة

المدن تنموا استجابة لحاجات انسانية جديدة ٤٣ - تفوق المدن الإيطالية ٤٤ - أهمية موقع إيطاليا على المتوسط وأهمية قربها من المشرق بخاصة ٤٥ - الإيطاليون يصبحون وسطاء طبيعيين بين الشرق والغرب ٤٧ - التقدم الاجتماعي والقانوني والنقي الذي حققته التجارة ٤٨ - التجارة تعزز الصناعة وكلتااهما تبني نظام النقابات ٤٩ - مناطق المدن الكبرى في إيطاليا وفرنسا

والفلاندر ٥١ - المدن الألمانية تنتظم في المحافاة الهندسية ٥٣ .

## « ب » اهباء العلوم

خبرات جديدة تبعت على نشوء أفكار جديدة ٥٤ - الكنيسة الوسيطة  
تنادي بالتأمل الروحي هدفاً أسى لها ٥٤ - نشاط المديفين الدنيوي يتعارض  
والاتجاه الأكاريكي العام ٥٥ - المدرسة الوسيطة ونظام الجامعات ٥٦ -  
الحركة الفكرية الوسيطة تستهدف التوفيق بين الايمان والعقل ٥٦ - القديس  
فرنسيس يمثل شعوراً جديداً نحو الحياة والطبيعة ٥٨ - بترارك نصير الثقافة  
الجديدة الأول ٥٩ - بترارك ينتصر « لانسانية » التراث الكلاسيكي ٦١ -  
بترارك يفتتح عهداً جديداً في الدراسات الكلاسيكية ٦٢ - استباحة كنوز  
الثقافة اليونانية وإحياء وجهة النظر الكلاسيكية ٦٣ - الثقافة الجديدة تفتن  
كبار رجال الكنيسة وتنتشر بين الطبقات جميعاً ٦٤ - انتشار العواطف الوثنية  
٦٥ - الخطر على الكنيسة من النزعة الوثنية عند كبار رجال الكنيسة  
الايطالين ٦٦

## « ج » الأرب والفنونه الجمينه

النهضة تساعد على نشوء الآداب القومية ٦٦ - الفنون الجميلة في العصر  
الوسيط تبدا الطراز القوطي ٦٨ - طراز النهضة يسود من ١٤٠٠ - ١٦٠٠ م  
٧٠ - التعريف بطراز النهضة ٧٠ - فن العمارة : بروناسكو وميكال آنجلو  
٧٢ - تكاثر القصور الخاصة والدارات الريفية ٧٤ - فن النحت : دوناتلو  
وميكال آنجلو ٧٥ - التصوير فن النهضة الممتاز ٧٦ - التصوير الفلورنسي  
من ماساشيو الى بوتيشيلي ٧٧ - ميكال آنجلو وليوناردو دافنشي ٧٨ -  
الفريسكو والتصوير الزيتي ٧٨ - رفائيل ٧٩ - التصوير البندفي: تيتيان ٨٠

## « د » العلم الطبيعي والاختراع

العلم الوسيط لا يعدو النجوم والكيمياء القديمة ٨١ - التقدم البطيء في

الملاحظة العلمية : الطب ٨٢ - التقدم الحديث في حقل الجغرافية ٨٤ - علم  
الفلك الجديد : كوبرنيكوس ٨٥ - فلك كوبرنيكوس يحرك راكدا العلم ٨٦ -  
المصر الوسيط ليس عاطلا من الاختراع ٨٧ - البارود يقضي على الميزة العسكرية  
التي كان النبلاء يتمتعون بها ٨٨ - الطباعة تنطوي على سلسلة من المخترعات  
٨٩ - الثورة العارمة التي أحدثتها الطباعة ٩١

### « ه » النزعة الفردية

نظام الطبقات الصارم في مصر الوسيط ٩٣ - المذهب الفردي ينجب كوكبية  
من الشخصيات اللامعة ٩٣ - النزعة الفردية تغزو نظاماً أخلاقياً خاصاً ٩٥ -  
عناصر النزعة الفردية الرئيسية ٩٦

### « ر » رحلات الاستكشاف والاستعمار الاوروبي

رحلات الاستكشاف ليست حدثاً مستقلاً ٩٦ - البرتغال تدشن رحلات  
الاستكشاف ٩٧ - الاكتشافات البرتغالية ٩٨ - كريستوفر كولومبس يبحر  
الى الهند غرباً ٩٩ - التباس الأمر على كولومبس في ما اكتشف ١٠٠ -  
الاستكشاف يصبح شهوة ١٠٢ - اوروبا تصطنع سياستين مختلفتين في آسية  
والاميركيتين ١٠٣ - البرتغال واسبانية تحاولان احتكار الاراضي الجديدة  
١٠٤ - مناطق النفوذ الاستعمارية البرتغالية والاسبانية ١٠٥ - ابتكاره تنجيه  
بيطه شطر الساحل الاميركي ١٠٦ - فرنسا تفهم كندا ولويزيانا ١٠٧ -  
ألمانية وايطالية لا تشاركان في الحركة الاستعمارية ١٠٨

### « ر » نشوء الرأسمالية

الاقتصاد الوسيط اقتصاد مديني وحدته النقابة ١٠٨ - التاجر المغامر  
ينفرد بالتجارة الخارجية ١٠٩ - شركات التجار ونشوء المصارف ١١٠ -  
الرأسمالية تقضي على نظام النقابة الاقتصادي ١١١ - نشوء المجتمع  
الرأسمالي ١١٢ .

## «ع» الملكية القوية

التحالف السباسي بين المدن والملك ١١٣ - انحطاط قوة الملك في ايطالية  
والمازية ١١٤ - ملوك اسبانية وفرنسة وانكلترة يعملون المدن متكاً لهم ١١٥ -  
العاطفة القومية تفضي الى تأييد الملك ١١٦ - نمو القوة الملكية ينطوي على  
صراع مع الكنيسة ايضاً ١١٨ - التدابير التي اصطنعها الملك للتمكين، سلطانه  
١١٩ - اسبانية وفرنسة وانكلترة تصبح ملكيات قوية ١٢٠ - كلمة  
اخيرة ١٢٠

٥٢/٦/١٥٩

مطابع زارالكشاف - بيروت